مَنْ لَمْ تَزَكَّ

خَطَرَاتٌ في حَلَقَاتْ

العميد الدكتور محمد عبد الحفيظ فرشوخ

بيروت
٢٠١٧

العميد الدكتور محمد عبد الحفيظ فرشوخ

من لم تزكّ

خطرات في حلقات

بيروت
٢٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين.

تزكية النفوس واحدةٌ من مهامٍ خمس، أوكلها الله تعالى إلى سيدنا محمد ﷺ، يقول سبحانه: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} [سورة البقرة: 151].

والتزكية تنقيةٌ للنفس من أدرانها وطغيانها، وجلاءٌ للقلوب من رانها وأحزانها، وتحريرٌ للعقول من قيودها وأوهامها، وإطلاقٌ للأرواح من سجونها وعلائقها. تنقل الانسان من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، حيث يصبح بإمكانه أن يعبد الله كأنه يرى الله تعالى، فإن عجز أيقن بأن الله يراه.

وعلى مرّ الأزمان، تناقل هذا الإرث العظيم في التزكية والإرشاد والتعليم، رجالٌ أُذِن لهم بذلك، بعد أن باعوا أنفسهم لله تعالى، فكثر أتباعهم كما تكاثر مبغضوهم وحسّادهم، وتلك ضريبةٌ على من نذر نفسه للبلوغ بالطالبين إلى مقام المحسنين. ولا يحق لأحد أن يزكّيَ أحدا، إلا إذا سبقت تزكيتُه على يدِ من أُذِن له بالتزكية، وكان لذلك أهل، كما لا ينبغي لأحد أن يزكّيَ نفسه، قال تعالى: {... فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [سورة النجم: 32].

في محاولات حثيثة، يقوم بها علماء المسلمين ومفكروهم والباحثون والدعاة، بالبحث عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى تقهقر المسلمين وقهرهم وتردي أحوالهم المعيشية والمعنوية، لا بد من التساؤل، ألا ينبغي التفكير وتقتضي مراجعة تاريخ هذه الأمة، بحثاً عن دور التزكية في استنهاض الأمة؟ وهل من سبيل لإعداد المزكّين؟ فالأمر أبعد من أن يكتفي المسلمون بأداء الفرائض، وأبعد من ينكفئوا في ديارهم يتعبدون، وأبعد من أن يؤدوا زكاة اموالهم ويكتفون، التزكية تستوجب استجابة الأسرة والمدرسة لتقويم نشأة الجيل الجديد، وتوجب إعداد المزكين في المساجد والأندية والمجتمعات.

لا تكفي هذه الأوراق لعرض التزكية بأصولها وشروطها وفنونها، بل عرضنا فيها نبذات منوّعة، أُعِدَّت أولاً كمادةٍ لبرنامجٍ إذاعيٍ يومي، بثته مشكورة إذاعة القرآن الكريم في لبنان، خلال شهر رمضان من العام 1437هـ/2016 م، علّها تعطي المستمع والقاريء فكرةً عامة عن معنى التزكية، وأساليب تلقّيها وتلقينها، كما تعرض بعض آثارها على فكر من طلب هذا المقام وسعى إليه، وعلى تحسّن أدائه ومعاشه. والله هو الموفق...

"المؤلّف".

تذكرة سفر إيابًا فقط

One Way Ticket

ما إن جلسنا حتى بادرني صديقي القديم بالسؤال: ماذا تفعل في هذه الأيام؟

قلت: أستعد للسفر.

قال: خير إن شاء الله، للعمل أو لتغيير الجو؟

قلت: لا هذه ولا تلك.

قال: ما علينا، متى ستسافر؟

قلت: لا أدري.

قال: تنتظر التأشيرة إذًا !

قلت: شيء من هذا القبيل.

قال: كم ثمن التذكرة؟

قلت: مجانًا.

قال: ذهابًا وإيابًا؟

قلت: ذهابًا فقط.

قال: يقطعون لك وان واي تيكيت؟

قلت: نعم.

قال: عجبًا لهذا الكرم المشروط! هل ستشتري حقائب حديثة ولائقة؟

قلت: لا حاجة لي بالحقائب.

قال: كم ستطول الإقامة؟

قلت: إلى ما شاء الله.

قال: ستشتري ثيابك من هنا أم من هناك؟

قلت: قطعتان من القماش تكفيان.

قال: عجبًا، على كل حال، من تدبر لك هذه الرحلة؟

قلت: ليس الأمر بيدي.

قال: قلت لي أنك تستعد للسفر فكيف تستعد إذن؟

قلت: أحب حين أن أصل هناك أن يحسنوا استقبالي، ويحجزوا لي في أفخم الأماكن وأن يعاملوني برفق واحترام.

قال: طبعًا طبعًا كلنا نحب ذلك وهل من يُعامَل بغير هذه الطريقة؟

قلت: نعم، وكثيرون يتم استدعاؤهم فجأة، ويُنتزعون انتزاعًا، ويُساء استقبالهم ويُحشرون في أماكن غير لائقة.

قال: هؤلاء مجرمون إذن.

قلت: أنت تقول ذلك، وقد قيل فيهم: {**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ** } [الرحمن: 41].

قال لي صديقي: أنت إذن تجري اتصالاتك منذ الآن لترتيب الاستقبال اللائق!

قلت: نعم.

قال: هل تعرف أحدًا هناك؟

قلت: أرجو ذلك وقد رتبت بعض العلاقات الطيبة مع أشخاص نافذين سبقوني إلى هناك.

قال: شاطر، إذن هناك واسطة؟

قلت: واسطة مشروطة.

قال: وما هو الشرط؟

قلت: سيرة ذاتية مقبولة.

قال: أفٍ، ما أقسى هذه الأيام! أينما تذهب يطلبون منك نسخة عن سيرتك الذاتية. على كل حال أكتب لهم فقط الجانب الجيّد منها.

قلت: مستحيل.

قال: لماذا، هل لديهم جواسيس؟

قلت: ننسى ولا ينسون. دقيقون أمينون يحصون.

قال: نعم نعم، إنه الشرق الأوسط الجديد كله أجهزة وعملاء استخبارات! كم تحتاج من المال في هذه الرحلة؟

قلت: ولا ليرة.

قال: ماذا ستفعل بمالك ومقتنياتك وبيتك؟

قلت: سأتركهم للأهل والأولاد.

قال: هم سيعطونك هناك إذن!

قلت: أرجو ذلك.

قال: من هو واسطتك أيها الشاطر؟

قلت: الذي اشترط عليّ أن أذكره كثيرًا وأن أذكر رسله بخير.

قال: بسيطة. دلّني عليه.

قلت: هو قريب جداً منك.

قال: لا تقل لي إنك تتحدث عن عمّنا الوجيه فلان.

قلت: عمّك هذا الله يستره من هذه الرحلة.

قال: سامحك الله ضيّعتني.

قلت: هداك الله ألم تفهم بعد؟

قال: آسف، أعتذر منك، لدي الآن موعد مهم، ما رأيك لو نلتقي يومًا ونعاود الحديث عن سفرتك هذه؟

قلت: أخشى أن يكون قد فات الأوان.

قال: لا يا شيخ، ما فات شيء: العمر طويل والأيام طيبة والصحة جيدة، "خلّيك" متفائل.

سلّم عليّ صديقي وانصرف، ووقفت أعاتب نفسي لِمَ لَمْ أكن معه أكثر وضوحًا؛ كان يكفي أن أردد على مسمعه قولَ الله عزّ وجلّ : {**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)**} [الغاشية].

2- إرحم نفسك

تغيرت تصرفات صديقي الدكتور في الآونة الأخيرة، التوتر ظاهر في مشيته وفي حركات يديه، يتلفت برأسه كثيرًا على غير عادته، مقطِّب الجبين، سريع التأفف، ما أن تتفرس في وجهه حتى تقرأ فيه التوتر والتذمر وعدم الرضى.

– لستَ على ما يرام، ما بك يا أخي؟

قال: "مش ماشي الحال".

قلت: أي حال؟

قال: (ما في شي ماشي معي)، لا في العمل ولا في البيت ولا مع المجتمع. ولا أعتقد أنني سأصمد في وجه كل هذه الضغوط!

قلت: هل لديك بعض الوقت لعلنا نفرّج معًا بعض الهموم؟

قال: كلَّ الوقت، ألا ترى الضجر على وجوه أصحاب المحلات، والملل والفراغ يعتري الناس وخاصة الشباب؟

قلت: نبيه حقًا، ها أنت تضيف مشاكل الآخرين إلى مشاكلك الخاصة. ألا يكفيك همُّك؟

قال: كلها هموم في هموم.

قلت: لكني تعلمت أن لا أجعل الهموم تتراكم كي لا تطيح بي، مصداقًا لقول الشاعر:

فصرت إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصالُ على النصالِ

قال: هذا حالي.

قلت: دعني اسألك عن بعض تفاصيل حياتك اليومية دون التطرق الى الحميم منها.

فاستجاب وأفاض واصفًا تحركاته، منذ استيقاظه صباحًا حتى خلوده إلى النوم مساءً، هذا إذا رقدت عينه!

قلت: ما رأيك لو نقارن هذه التفاصيل بما كان عليه جدي وجدك وأبي وأبوك؟

قال: لنحاول فلن نخسر شيئًا.

قلت: تستيقظ بعد طلوع الشمس، خائر القوى وتودّ لو تعود إلى الفراش. وترتدي ثيابك على عجل وتقاتل سائقي السيارات لتصل إلى مكان عملك مع بعض التأخير. وإذا كنت سعيد الحظ يتسنى لك بعض الوقت لشرب القهوة وتصفح الجريدة. بينما كان جدك يوقن أن نومة الصبح تقطع الرزق، لقول النبي ﷺ: "**إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن طلب أرزاقكم**"[1]، فيستيقظ قبل شروق الشمس ويصلي الصبح ويقرأ القرآن ويوقظ أهل البيت بمزاج معتدل وكلام طيب، يتناول فطورًا (ماكنًا) ثم يخرج إلى عمله بعد أن يستودع أهله وولده وماله عند من لا تخيب ودائعه، أفمن كان مطمئنًا كمن كان قلقًا؟

قال: لا تقارن بين عصرنا وعصرهم فكل شيء قد تغيّر.

قلت: ربما كان أكثر صرامة مع زوجته، منا مع زوجاتنا، ولكنه كان أكثر تعلقًا ببيته وعائلته. قل لي، هل يجتمع أهل البيت عندك على الطعام ولو مرة واحدة في اليوم؟

قال: (صعبة)، لماذا؟

قلت: متى تتحدثون وتتبادلون المشاعر والأفكار؟ يا حبيبي، إجتماع الغداء فرصة للتعبير ولتوحيد الرؤية، يساعدكم في رسم نهج البيت ومسيرته، قل لي: هل تصلّي بعض صلواتك في بيتك أم جعلته قبرًا للنوم فقط؟[2]

قال: أصلي فيه أحيانًا.

قلت: وهل يصلي أهل البيت معك؟

قال: لا، نصلّي كلٌ على حدة حسب أشغالنا.

---

[1] أخرجه الديلمي عن أنس (7380)، التنوير شرح الجامع الصغير (2/ 125).

[2] حديث: **"لا تتخذوا بيوتكم قبورا صلوا فيها"**، أخرجه الإمام أحمد، عن زيد بن خالد.

قلت: تريد البيت متآلفًا ولا تبذل لذلك جهدًا؟ يا أخي عندما تقف في بيتك إمامًا وقدوةً ويصلي أولادك وزوجتك خلفَك تنتظم الأسرة دونما تكلّف أو تصنّع. ولا حاجة بعد ذلك للصراخ أو العبوس كي تفرض نفسك قائدًا وربًّا.

قال: وهل يمكن إصلاح البيت بمثل هذه الطريقة؟

قلت: أأنت أصدق أم الله تعالى؟ القائل: {**وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**} [الأنبياء: 90]؛ هلا أكثرت من الدعاء لك ولذريتك؟ {**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**} [إبراهيم: 40].

جرّب يا أخي فلن تخسر شيئًا. في الصباح تصالَح مع نفسك، وفي النهار تآلف مع أهلك، وفي المساء عد إلى بيتك واسأل وتابع ووجّه، وأعط القدوة والمثل، وحاذر أن يكون لك في الليل لهوٌ أو تسالي فيما يضرك ولا ينفعك، كأن تمضي الساعات في لعب الورق، أو تقليب التلفزيون، أو في احتراق رئتيك مع تبغ النارجيلة، فالسهر بلا طائل يعجل في الهرم، ويؤرّق في النوم، ويطيح بصلاة الصبح، وبالاستيقاظ المبكر بنشاط.

وأردفت قائلاً: بلغني أنك تتابع في الليلة الواحدة عدة نشرات للأخبار، إحداها للموالاة والثانية للمعارضة والثالثة لجهة محايدة والرابعة والخامسة لفضائيتين عربيتين والسادسة والسابعة انكليزية وأميركية ثم تتبعها في آخر السهرة بفيلم رعب أو مغامرات "أكشن".

قال: صحيح.

قلت: يا أخي ارحم نفسك. كيف لعقلك أن يخلد إلى النوم بعد كل هذا.

قال: لا أحب أن يقال عني أني لا أفهم بالسياسة ولا أتابع أخبار لبنان والعالم.

قلت: الآن عرفت لماذا يظهر رؤساء العالم وهم يبتسمون ويمضون أسعد الأوقات في مزارعهم وعلى ظهر مراكبهم.

قال: لماذا؟

قلت: لأنهم ألقوا بثقل همومهم عليك وعلى أمثالك فارتاحوا واطمأنوا وزال قلقهم.

ضحك صديقي وقال: لا تتهكم عليّ (واللي فيني بيكفيني).

قلت: معاذ الله أن أتهكم على أحد. كل ما أردت قوله هو ترديد قوله تعالى: {**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**} [البقرة: 286]، وقول رسول الله ﷺ "**عليك خاصة نفسك...**"

قال: لو أطعتك فيما نصحتني فكيف تتحسن حالتي المادية؟

قلت: لو كنت تعمل عند رب عمل عادل لا يهضم لك حقًا ويكافئك على إخلاصك وأمانتك، أكنت تثق بأنه سيَزيد في راتبك ويكثر من منحك وإعطائك.

قال: نعم.

قلت: فكيف إذا كان رب عملك هو القائل: {**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)**} [الذاريات]. وهو القائل: {**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**[1] **(2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**} [الطلاق].

قال: كلام جميل.

قلت: ليس كلامًا فقط إنه وعدٌ مشروط فهل تفي بما عليك حتى يأتيك بما وعدك به؟

قال: أحاول إن شاء الله، لكن أريد أن أبوح لك بشيء.

قلت: قل خيرًا إن شاء الله.

قال: لمجرد أن بحت بما يضيق به صدري شعرت بشيء من الإرتياح.

قلت: هذا أوّل الغيث.

ثم افترقنا على أمل أن (يمشي الحال) إن شاء الله.

واستدرت بعد لحظات إلى نفسي وأسررت إليها قائلاً: إرحم نفسك أنت أيضاً!

---

[1] أي من كل ضيق.

3- الفوز العظيم

يفرح أحدنا ويفاخر حين ينجح له ولد أو بنت في الامتحانات الرسمية، وقد يتفاخر بعضنا على بعض إذا اقتنى سيارة جميلة أو اشترى بيتاً أو ابتنى مبنىً فخما.

ويقيم بعضنا حفلة استقبال أو عشاء بمناسبة وبغير مناسبة ليطلعَ أصحابه ومنافسيه على أمر أنجزه أو أفلح فيه.

بعضنا يتعالى على أترابه ما أن يحقق ثروة، وبعضنا يتباهى بابن له ربح سباقاً أو بطولة، وببنت له تعزف على البيانو أو على القيثارة بمهارة، أو تجيد التمايل في رقص تعبيري أو الرسم أو النحت...

وحُق لكل منا أن يفرح ويحتفل بنيل أحد أفراد أسرته شهادة عالية أو بخطوبة أو بزواج أو بإنجاب...

لكن لنعترف وبصراحة أنه من النادر أن نشجع أحد أولادنا على حفظ القرآن الكريم أو بعضه، والأندرُ من ذلك أن نحفّزه ونكافئه أو نحتفل به إذا ما حفظ أو رتّل، والأندر الأندر أن نوجّه أحدهم لدراسة الفقه أو شيء منه إلى جانب العلوم العامة التي يتلقاها...

ولنكن أكثر صراحة! كم عدد الذين يولون أمر صلاة أولادهم وأهليهم الاهتمام اللازم ويتابعونهم بالإلحاح والتنبيه والتشجيع والتقريع؟

بصراحة مطلقة ودون مواربة ودون اختلاق أعذار! من منا يذهب في أفكاره بعيداً وبعمق ويستبق مغادرته حياتَه الأولى فيسألُ نفسه: ما مقدار فرحه إذا نجا عند الحساب وفاز بالجنة؟ قال تعالى: {**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**}، [آل عمران: 185]. كيف سيحتفل عندما يتحقق أنه فاز بمرتبة {**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**}؟ [البينة: 8].

أول الخاسرين يومذاك من لم يولِ الله حقه الذي اشترطه عليه: {**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**} [الأنعام: 12].

وإن نجا بنفسه فهل سيكتفي ويديرُ ظهره للذين أنجبهم وللذَيْن أنجباه؟ هل سيسأل عن زوجته وشريكة عمره وكفاحه؟ هل سيتفقّد إخوته وأخواته الذين شاطرهم الطفولة والصبا وربما العمر كله؟

كم تبلغ حسرة أحدنا إذا نجا وحده من دون أهله؟ ما مقدار الأسف الذي سيشعر به حين يعدّ الناجين منهم فيجدهم قليلا؟

وأية حسرة ليس كمثلها حسرة حين يتصادفون في الدرك الأسفل يتعاتبون بدلاً من أن يكونوا في منابر النور على الأرائك متكئين؟ قال تعالى: {**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**} [الزمر: 15].

الفرحة الحقيقية والاحتفالات التي ستدوم ولن تعرف نهاية هي حين ينظر المرء في ذلك اليوم المشهود ليجد أحبابه من حوله، يتعانقون ويتبادلون التهاني، يرقصون فرحاً ويصيحون طرباً بأنهم فازوا فوزا ساحقاً لا خسارة بعده ولا حزن ولا شقاء، وأنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً.

ها هو نوح نبيّ الله ورسوله يستشفع في ابنه فيقال له: {**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**} [هود: 46] ! سقط من عداد الناجين، إذ لا شفاعة لمن ظلم نفسه وآذى غيره ولو كان ابناً لنبي أو وليّ .

أخزى موقف يمكن أن يواجهه الانسان في ذلك الوقت العصيب هو أن يخرج صفر اليدين من أعمال كالجبال قام بها في الدنيا لم يكن يقصد بها وجه ربه، وكانت له بها مآرب أخرى: {**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)**} [الكهف].

يا للخيبة ويا للهول إذا كان المرء قصير النظر صغير الآمال ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فكان من الناس النيام الذين إذا ماتوا انتبهوا .

الفوز المبين هو لمن يكنَفُه الله تعالى يوم القيامة برحمته فلا خوف ولا حزن بعد ذلك: {**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ**} [الجاثية: 30].

والفوز العظيم هو النعيم الذي لا شقاء بعده ولا موت ، وأكبر من ذلك أن تعيش في رحاب ربٍ رحيمٍ راضٍ غنيٍ كريم: {**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**} [التوبة: 72].

والفوز الساحق هو حين يتلفت المرء يمنة ويسرة فيجد أحبّاءه من حوله يرفُلون بالنعيم الدائم المقيم، قال تعالى: {**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** } [الطور: 21].

هل في ذلك ذكرى لقوم يتفكرون؟

4- إقرأ من المهد إلى اللحد

سألني حفيدي يوماً: ما لي أراك تقرأ كثيرا؟ قلت: ولماذا تقرأ أنت؟ قال: لأنجح في المدرسة، قلت: وكذلك جدُّك لينجح في دراسته، قال: وأنت عندك مدرسة؟ قلت: نعم. تركني حفيدي وهو يلوّح برأسه متعجباً.

رجّعني هذا الموقف إلى استعادة شريط الذكريات لأستذكر متى تعلقت بالقراءة وكيف؟ يومها قادني إلى لقاء رجل حكيم ما سمعته عنه من وصف طيب، وكان من كلامه: أتقرأ؟ قلت: قراءة متقطعة، قال: واظب ، فالقراءة مفتاح. وانطلق بالشرح كالسيل، قال: إقرأ القرآن، القرآن مفتاح معرفة الخالق ومعرفة ما يرضيه وما يغضبه، بين أيدي الناس شرف عظيم لا يقدّره بعض الخلق، ففي الحديث الشريف: "**إذا أحب أحدكم أن يحدث ربه فليقرأ القرآن**"[1]. وأي شرف أعظم من أن يرسل إليك رسالته فهل تهملها أو تحملها؟

واقرأ الحديث الشريف ففيه تفسير ما عجزت أن تفهمه من القرآن وفيه ما يسهّل عليك حياتك وييسر لك سلوكك.

واقرأ سيرة النبي ﷺ، فهي تقوي حبك له وشوقك إليه فما أحب من جهل أخبار حبيبه.

واقرأ من أخبار الصالحين قادةً وعلماء وفقهاء، فالمرء يتخذ مَن هم أرقى منه قدوة، ولا يتأسى بالغافل أو المنغمس أو بمن طلب الدنيا فأرهقته وألهته عن طلب ما هو أعلى وأبعد وأخلَد.

[1] الخطيب في التاريخ، والديلمي في الفردوس عن أنس .

ثم اقرأ بعد ذلك في كتب الفقه يسهل عليك فهم الأحكام وتتفتق لك أسرارها، ولو بدأتَ بالفقه لوجدتَ بعض الصعوبة وشيئاً من الجفاف، فالحب والتعلق يذللان الصعاب.

وتأخر في مطالعة كتب فلاسفة المسلمين ورجال التصوف كي تكتسب أولاً حصانة الشرع، فلا تَحيد عن قواعده وكي تتمكن من فهم ما بين السطور، لأنهم قصدوا أن يكتبوا للخاصة وليس للعامة.

ولا تغيب عنك كتب العلوم والاطلاع على الاكتشافات الحديثة والاختراعات ففيها ما يؤكد صحة مسيرك وصدق عقيدتك فتزداد إيماناً وتثبيتا. وإن أردت أن يَثبُتَ في ذهنك ما قرأت فعليك بذكر الله وقُصّ ما قرأت على صديق أو قريب.

وليس ما نصحتك بقراءته إلا بداية، فإنك عند ذلك وبتوفيق ربك، تصبح أهلاً لمعرفة دينك ومعرفة عصرك، فيَحِق لك الكلام، ويُمتّعك الله بملكة الربط بين العلوم والآيات والأحاديث والأفكار، وهي علامة الإذن بالعمل، وإياك وأنت في عز العطاء أن تتوقف عن التحصيل، واذكر من سورة الكهف أن موسى عليه السلام، وهو النبي، قد أُمِر بالتحصيل من ولي ليستكمل علومَ الشرع الكسبية بعلومِ الغيب الوهبية.

توقف الحكيم عن الكلام وليته تابع، ورحت بعد ذلك أتامل واستخلص مما سمعت:

هل طلب مني ذلك الحكيم الكثير؟ فالطبيب مثلاً يحصّل علومه خلال الثلاثين سنة الأولى من عمره كي يمارس الطب في الثلاثين سنة الثانية أو أكثر قليلا فيما تبقى من حياته الدنيا، أفلا يكون من الأجدى أن يستمر المرء في التحصيل طيلة حياته الأولى، كي يتمتع بعدها بحياة خالدة وطيبة وسعيدة؟

والأمر الثاني، أن كلمة إقرأ ما كانت لتنفذ إلى روعي لولا أن منّ الله علي بالحب والتعلق والاقتداء بهذا الإمام الحكيم الذي ساقتني الأقدار إليه، فصارت نصائحه تسري بدون كلل أو ملل.

أيها الأحبة، إقرأوا وأقرئوا، لكن لا الإباحيات ولا المحزِنات، لأثرهما السيء على النفس وعلى خلايا الدماغ، بل إقرؤا طيباً لتحصّلوا الحياة الخالدة الطيبة حين ينادوننا: {**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**} [الزمر: 73].

5- الشيخ المربي والشاب

ناهز الخامسة والعشرين من عمره، وهو لا يزال يقرأ ويسعى ويجول بحثاً عن واحد ممن قيل عنهم في الماضي أنه العالم الصالح الحكيم العارف الورع. لم ييأس بعد أن بحث في بقاعٍ كثيرة والتقى رجالاً كثراً، كان على ثقة من أن مثل هؤلاء على ندرتهم موجودون في زمانه وعليه أن يبحث عن مكانه، قرأ أن أمثاله يرميه حساده بالزندقة، ويطلقون عليه التهم جزافاً، وبذلك يروّجون له عن غير قصد منهم فيأتيه المزيد من الطلاب ومن الفضوليين فيستقر لديه الموفقون منهم، كان الطالب كثيراً ما يردد: لن أبرحَ حتى أجدَه أو أمضيَ حقبا.

جدد الطالب وضوءه قبل الدخول والتقط أنفاسه واستجمع قواه، سلّم على الحاضرين وخصّ الحكيم بالتحية، رد عليه بابتسامة وإيماءة وأشار عليه بالجلوس، عرّف الطالب عن نفسه وعن رغبته في صحبة العالم والتعلّم على يديه، سأله العالم: هل تستطيع معي صبرا؟ {**قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**} [الكهف: 69].

سأله ممتحناً: كم تتوقع أن تبقى معنا؟ أجاب لا فراق بعد اليوم. إبتسم العالم وقال: ما دليلك؟ أجاب: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**} [التوبة: 119]. قال الحكيم خاشعاً: صدق الله العظيم، كم تتوقع أن يكون راتبك؟ أجاب الطالب: جئت لأبذل ولم آت لأتعيّش.

قال الحكيم: أخيّرك بين الصحبة والخدمة فماذا تختار؟ أجاب الطالب: الصحبة شرف والخدمة أرقى، استغرب بعض الحاضرين هذه الإجابة، فأومأ الحكيم إليه أن استأنِف الشرح، فقال: الصحبة جلسات محدودة معدودة، والخدمة مرافقة وملاصقة، أتعلّم من خلالها الأصول، وأصل بواسطتها إلى أدق التفاصيل.

سأله الحكيم أتحفظ حديث الإسلام والإيمان والإحسان؟[1] ، قال نعم، قال: أمِن أهل الإسلام أنت أم من أهل الإيمان أم من أهل الإحسان؟ فهم الطالب أن عليه أن يتوقف عن الكلام، وأن يستعد لتلقي الدرس الأول، فآثر الصمت والإنصات، تابع الحكيم:

الإسلام اختيارك، وعلامته شهادتك بتوحيد الله واعترافك برسالة نبيّه، ودليله إقامتك لشعائر دينه من صلاة وزكاة وصوم وحج كما تعرف، فعليك إذن أن تعلن أنك من أهل الإسلام قولاً وعملاً. ولا تنس أن تتفقد من وقت لآخر صحة قيامك بالطاعات والعبادات ، فالنسيان قرين الإنسان. وأكثر ما يمكنك أن تعلنَه أنك من أهل الإسلام، وتذكر قول الله تعالى في سورة الحجرات:[**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** {14}].

وتعلم درسك الأول من دعاء سيدنا يوسف: {**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**} [يوسف: 101].

وحتى تكون من أهل الإيمان، فطريق الإيمان طويل وجميل، يسيرٌ على من صدق، عسيرٌ على المرائي واللاهي. والإيمان أكثر من سبعين باباً كما تعرف، وتتوزع هذه الأبواب بين العلم والعمل، فيجب أن يكون ثابتاً كعقيدة وأما درجاته فتزيد وتنقص بحسب همتك وتحصيلك، لأن فيه علاقتك مع الخلق وعلاقتك مع الخالق، وتخلصك من

---

[1] حديث: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ يَمْشِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: " مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ المَرْأَةُ رَبَّتَهَا، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَإِذَا كَانَ الحُفَاةُ العُرَاةُ رُءُوسَ النَّاسِ، فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ) ثُمَّ انْصَرَفَ الرَّجُلُ، فَقَالَ: «رُدُّوا عَلَيَّ» فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوا فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ»**. متفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

علائق نفسك. ولا تدعي أنك من أهل الإيمان بل احرص أن تكون كذلك، واترك تقييمه لمولاك، قال تعالى: {**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**} [النجم: 32].

وأما أن تكون من أهل الإحسان فهذا الأمر طرفه بيدك وطرفه الآخر بيد الله تعالى، ولا تسألني عنه حتى أحدث لك منه ذكرا.. إنتهت جلسته مع الحكيم.

والخلاصة، أن للتلقي ثلاثة شروط، طالب علم يحترق ليعرف أكثر، ومعلم جدير بالتربية والتزكية والإرشاد، وصلة سليمة بينهما لا يجمعهما إلا الحب في الله بلا مصلحة ولا منفعة.

ومن ظن أن هذه الطريقة قد بليت ومرّ عليها الزمن، فقد قطع الطريق على نفسه.

6- القرآن في رمضان

لماذا سُمّيَ شهرُ رمضان شهرَ القرآن؟

إنه افتتاح الموسم، موسم الرحمة والمغفرة والعتق من النار، فتحه الله تعالى لجميع العباد بلا استثناء، عسى أن يتوبوا، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب أن يراهم يتخبطون في عذابات الدنيا ولا في عذابات الآخرة. قال تعالى: {**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**} [النساء: 147].

ويقول عليه الصلاة والسلام: " **أتاني جبريل فقال: رغم أنف رجلٍ أدرك رمضان فلم يغفر له! قل: آمين، فقلت: آمين! ورغم أنف رجلٍ ذكرتً عنده فلم يصلّ عليك! قل: آمين، فقلت: آمين! ورغم أنف رجلٍ أدرك أبويه أحدُهما أو كلاهما عنده الكبر فلم يُدخلاه الجنة! قل: آمين، فقلت آمين**" .[1] (في رواية **أبعده الله**)[2].

يحب الله تعالى أن يباهي بنا الملائكة: " **يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي**،...[3]، ولذلك فهو شهر التوبة والمغفرة، وفي الحديث: " **الصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، كفارة لما بينهما ما اجتنِبت الكبائر**"[4].

في صوم رمضان دعوة وفرض ووعد، يقول الله تعالى: {**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**

---

[1] مسند البزار ، البحر الزخار (10/ 192)، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرة.

[2] ابن حبان والطبراني في الكبير عن مالك بن حويرث، والبخاري في الأدب عن جابر.

[3] صحيح البخاري (9/ 143)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

[4] مسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة.

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)}، [البقرة].

وكلمة الهدى هنا مكررة مرتين في آية واحدة! الهدى الأول عام للناس أجمعين والثاني تثبيت على هدى الصراط المستقيم، مكافأةً لمن استمع إلى الهدى الأول وإلى البينات، واستجاب وامتثل.

إذا أردنا ان نعرف ما منزلتنا عند الله، فلننظر ما منزلة الله عندنا؟ ما منزلة كتابه بين الكتب؟ ولمن نعطي الأولوية؟ لاسترضائه أو لطلبنا رضى الناس؟ كم من الوقت خصصنا لأرواحنا في صلاتنا نسبة لما نخصصه من وقتنا للناس ولبطوننا وللباسنا ولنومنا وللهوِنا.

أيهما يأخذ من وقتنا أكثر؟ القرآن أم الخليوي؟ إن وصلتنا رسالة ممن نحب نسرع لقراءتها وإن وصلتنا ممن لا يَهمنا أمره نؤخر قراءتها وقد لا نقرأها.

ألَسْنا على السُّنّة؟ **كان النبي يراجع مع جبريل القرآن في رمضان، وفي رواية يدارسه ويعارضه أي يقابله.** وبعضنا لا يراجع إلا المسلسلات والأغنيات وأخبار الغانيات. يقول الله تعالى: {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** } [محمد: 24]؛ أننتظر الشكوى كما جاء في قول الله تعالى: {**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**} [الفرقان: 30].

ويقول جلّ وعلا: {**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** } [الإسراء: 9]. التي هي أقوم أي(القيم والأخلاق والحكمة وحسن التصرف وحسن التدبير).

لنقارن بين ما نقرؤه وبين أخلاقنا، ولنأسف على ما مضى، ولنجتهد ونجاهد أنفسنا وأبصارنا وألسنتنا. القرآن منبع الأخلاق، جاء في الحديث الشريف: "**اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه**"[1].

إذا وعينا القرآن وتدبرناه أوتينا الحكمة وحسن التصرف، وحفظنا عقولنا من الخرف والهذيان، وقد ورد: "**من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت**".[2].

نقول للمسلم الأمي وللمسلمة الأمية اللذين يهجران القرآن بحجة العجز عن القراءة، لا عذر لكم، إسمعوه وتابعوه واحضروا مجالس شرحه ووعظه. يقول عليه الصلاة والسلام: "**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ يَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ**"[3].

يمكننا أن نختمه مستمعين منصتين، والوسائل الالكترونية متوفرة. إذ أن للمستمع حظ، قال رسول الله ﷺ: "**من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلا آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة**"[4].

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا، اللهم علّمنا منه ما جهلناه، وذكّرنا منه ما نُسّيناه، واجعله حجة لنا ولا تجعله حجة علينا. اللهم اجعله لنا في الدنيا جليسا، وفي القبر أنيسا، وفي الآخرة شافعاً مشفعا يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

---

[1] الديلمي في الفردوس عن ابن عمرو، والطبراني عن ابن عمر.
[2] ابن عدي في الكامل عن أنس .
[3] البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه، عن عائشة.
[4] الإمام أحمد عن أبي هريرة.

7- تدبّر القرآن

يقول الله تعالى: {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** } [محمد: 24]؛ وقال أيضاً: {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**} [ص: 29].

والمعنى أن قراءة القرآن بلا تدبر لا تفي بالمطلوب من المسلم، فكيف نتدبر القرآن إذن؟

ولنسأل أنفسنا ومن دار في فلكنا: ماذا أحرزنا من تقدم بين ما ختمناه في رمضان الماضي ورمضان الذي قبله والذي بعده؟ فمن لم يكن في زيادة فهو في نقصان، وماذا حصّل الذي ختمه مرتين وثلاث وأربع في شهر واحد؟ أكلام يتلى فقط؟ ما هكذا يكون التدبر للمبتدئين: التباري ليس بعدد الختمات بل بكم آية فهمنا وكم آية فقهنا وكم آية حفظنا وبكم آية عملنا وكم آية علّمنا. أيعقل أن تتِم امرأةٌ الخَتمة تلو الختمة وأولادها يلعبون في الشارع، بدلاً من إشراكهم معها في قراءة القرآن وشرح قصصه ومعانيه؟.

كيف تتطور قراءة القرآن بين رمضان الحالي ورمضان المقبل؟ أين نحن من علوم القرآن؟ كيف نزل القرآن؟ تفسيره اللغوي، قصص القرآن، أخلاق القرآن، أسباب النزول، وفي ذلك فهم أفضل للسيرة، الأمثال والعبر في القرآن، بشائر القرآن، إنذرات القرآن، الحكمة في القرآن، أحكام التجويد، فهم الأحكام الشرعية، الوحي، المحكم والمتشابه، الناسخ والمنسوخ...

كيف نحسّن قراءتنا وكيف نحسن أصواتنا؟ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "**لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته**"[1]. ويقول أيضاً: "**زينوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا**"[2].

---

[1] ابن حبان والحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان، عن فضالة بن عبيد .

[2] رواه الحاكم عن البراء.

في تفصيل القرآن وفي التوغل في عباراته ومعانيه، شعور بارتقاء روحي وعقلي عجيب، يقول عليه الصلاة والسلام: "**إعربوا القرآن والتمسوا غرائبه وفرائضه وحدوده فإن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال**"[1].

القرآن نذير: {**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** (92)} [الأنعام].

القرآن قدوة: {**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** (155)} [الأنعام].

القرآن عربي نزل بلغة عربية بديعة: {**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** } [يوسف: 2] علنا نفهمه وندرك معانيه وأبعاده ومراميه.

القرآن ينقذنا من الضلال إلى الهدى ويخرجنا من الظلمات إلى النور، قال الله تعالى: {**بسم الله الرحمن الرحيم الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**} [إبراهيم: 1].

كتاب فيه قصص تعلّم الكبير والصغير: {**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**} [الأعراف: 176]، وكتاب فيه أمثال للاعتبار، قال جلّ وعلا: {**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**} [الزمر: 27]. وقال تعالى: {**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**} [العنكبوت: 43].

هذا القرآن بشير ونذير، فصلت آياته لكي يفهمها القاصي والداني، والمتعلم والأمّي، والكبير والصغير، قال تعالى: {**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (3)

[1] البيهقي في الشعب عن أبي هريرة.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)} [فصلت]. ماذا حصّلنا من القرآن في هذا الشهر المبارك، في شهر القرآن، وفي غيره من الشهور والأيام؟

يقول نبيّنا عليه الصلاة والسلام: "**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**".[1]

ويقول ﷺ: " **يجيء القرآن يوم القيامة، فيقول يا رب حلّه فيُلبس تاج الكرامة ثم يقول: يا رب زده فيُلبس حلة الكرامة ثم يقول: يا رب ارض عنه فيرضى عنه فيقال اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسَنة**"[2].

القرآن يرقى بصاحبه إلى أعلى درجة ليس فوقها إلا درجة الأنبياء، قال نبيّنا عليه الصلاة والسلام: "**من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة من جنبيه غير أنه لا يوحى إليه**"[3].

ليس على الأهل ولا على المعلمين واجب أفضل من تعليم القرآن، قال ﷺ: "**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**"[4].

رمضان موسم لتعليم الأولاد القرآن، وكذلك في فصل الصيف وأيام العطل، والثمرة مضمونة في الدنيا كما في الآخرة، قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟**»[5].

---

[1] أبو داود في سننه، عن أبي هريرة .
[2] الترمذي والحاكم، عن أبي هريرة .
[3] الحاكم والبيهقي في الشعب، عن ابن عمرو.
[4] ابن عساكر، عن عثمان.
[5] أحمد وأبو داود والحاكم عن معاذ بن أنس .

ومن الدعاء المستحب في حفظ القرآن: اللهمّ بديعَ السموات والأرض، ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، نسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك، أن تُلزِم قلوبنا حفظ كتابك كما علمتنا، وارزقنا أن نتلوَه على النحو الذي يرضيك عنا، ونسألك أن تنورَ بالكتاب أبصارنا، وتطلقَ به ألسنتنا، وتفرجَ به عن قلوبنا، وتشرحَ به صدورنا، وتستعملَ به أبداننا وتقوّينا على ذلك، وتعيننا عليه، فإنه لا يعيننا على الخير غيرك، ولا يوفق له إلا أنت[1]. وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

[1] سنن الترمذي، عن ابن عباس.

8- ويتفكرون

ما من عاقل إلا ويبحث عن المغزى من مولده وحياته ومماته، ثم عن مصيره بعد ذلك، أيفنى في التراب كالأنعام، أم أن له حياةً ثانية؟ وما من مثقف إلا وهو يقرأ في الكتب الجليلة، قديمها وحديثها، عن أمر جليلٍ يشبع نهمه ويرضي شغفه، وما من مفكر إلا ويغرق في التنقيب بين أفكار الفلاسفة وأخبار الأنبياء وسير العظماء، عن سر هذا الكون، وعن طريقة الوصول إلى الحقيقة، بعيداً عن المبالغة والدجل والتزييف.

كان ابن عباس وأبو الدرداء رضي الله عنهم، ومعهم الحسن البصري رحمه الله يرددون: «**تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ**»[1].

لأن أصحاب النفوس الجيّاشة لا يُخدعون بالمظاهر البهية، ولا بالمهرجانات المبهرة، ولا بناطحات السحاب الشاهقة، ولا بالصروح المذهبة المزخرفة، ولا بجحافل الجيوش، ولا بترسانات الأسلحة.

لا نتكلم هنا عن النفوس البهيمية لبعض بني آدم، الذين شُغلوا بالملبس والمأكل والمشرب، الذين جالت من حولهم إشارات وآيات، فلم يلقوا لها بالا، إذا سمعوها لم يُصغوا لها، وإذا قرؤوها لم يتفكروا فيها، ولم يتدبروا. لهذا وصفهم المولى تعالى بالأنعام؟ فقال: {**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** (44)}، [الفرقان]. لماذا؟ لأن الأنعام تقاد إلى الذبح، وهي تظن أنها تقاد إلى المرعى.

[1] مصنف ابن أبي شيبة (7/ 190)، عَنِ الْحَسَنِ - العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني (1/ 298) عن ابن عباس. وشعب الإيمان (1/ 262)، عن أبي الدرداء.

ومراعي الانسان أيها الأحبة هي مغريات الحياة الدنيا التي لا تنتهي، والشغف بها ليس له حد إلا الموت، والانشغال بها غفلة عن الحقيقة الساطعة. جاء في الأثر: (**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**)[1].

أصحاب الأرواح العليّة والنفوس الأبيّة، هم الذين تجاوزوا شواغل الطعام والشراب والنكاح، وسرّحوا النظر في أبعد من ذلك. هم الذين يرفضون الجهل والأساطير، ولا يتسمرون لساعات في المقاهي وأمام الشاشات، هم الذين أهمّهم البحث عن الحقيقة البسيطة الخطيرة: أننا لم نخلق عبثاً ولا بد من غاية سامية خلقنا لأجلها، ولا بد من دليل ينير سبيل الحائرين.

وإذ يتناهى إلى أسماعنا وأبصارنا كلامٌ فوق كل كلام، وحكمةٌ ليس فوقها حكمة، قول الله تعالى: {**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (117) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (118)** }، [سورة المؤمنون].

أصحاب الوعي واليقظة والعقل والإرادة، هم الذين يتوقفون بين الفترة والفترة، يتفكرون، يعيدون حساباتهم، ويراجعون أعمالهم وأداءهم، يصححون مسارهم، يُهرعون إلى من يملك الخبرة والرشاد، يهتمون ويهمّون، يقرؤون يسألون، يتعلمون، هم الشجعان الذين لا يقبلون بأن تسوقهم الدنيا كالأنعام، يعملون لدنياهم، لكنهم يعدون العدة لآخرتهم، يعلمون من الذي سيتلقاهم هناك ومن سيلقاهم، تتلقاهم الملائكة، ويلاقيهم رسول الله ﷺ لقاء

[1] يعزى إلى سيدنا علي بن ابي طالب، مواعظ الصحابة لعمر المقبل (ص: 62)، ومن حديث أبي الفضل الزهري (ص: 670)عن بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ. وللأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 52) عن سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ.

الحبيب المشتاق، ثم اللقاء الأكبر لقاء الرضا، الذي قال فيه المولى تعالى: {**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** } [البينة: 8].

نستقي الخلاصة من سنّة الحبيب سيدِنا محمد عليه الصلاة والسلام: كان إذا استيقظ ليلاً مسح النوم عن وجهه، وتلا متفكراً بهذه الآيات من سورة آل عمران[1]:

{**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194)**}.

هنيئاً لمن تفكر فاعتبر فتدبر.

[1] متفق عليه ، عن ابن عباس.

9- لغة السرّ

يقول الله تعالى: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**} [الإسراء: 70]، ويقول: { **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**} [التين: 4]، إذ من آياته أنه أودع فيه من الآلات ما يحيّر العقول: أجهزة تعمل بنظام بديع، وغدد تفرز ما يناسب من موادٍ، وتغيّر بمعدلاتها حسب العمر والحاجة والظرف، وغدد أخرى تأمر الغدد الأولى وتنظم لها برامج أعمالها، في عالم سرّي يعمل بلا ضجة ولا كلل ولا منّة. فإذا حان الأجل صدر أمر واحد يتوقف عنده كل شيء.

ومن المؤسف أن يعيش المرء ثم ينتقل إلى عالم البرزخ ثم إلى العالم الآخر ليكتشف أنه كان مزوداً بجهاز عظيم خارق وفاعل ومؤثر لكن بعد أن فات أوان استعماله ويا للأسف.

أن نعيش باجسادنا فهذا أول استعمال وأقله أثراً، وأن نعيش بعقولنا وفكرنا فهذه حياة أفسح وأسعد، أما أن نحيا بقلوبنا وأرواحنا فهذه حياة خالدة لا موت فيها بعد الموت الأول، يجمع العبد بها سعادة الدنيا وفرح الآخرة.

عن سيدنا عبد اللَّهِ ابن مسعود قال: (**الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ تَتَلَاقَى فِي الْهَوَاءِ فَتَتَشَامَّ كَمَا تَتَشَامُّ الْخَيْلُ**[1] **فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ وَلَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا جَاءَ إِلَى مَجْلِسٍ فِيهِ مِائَةُ مُنَافِقٍ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ لَقُيِّضَ لَهُ حَتَّى يَجْلِسَ إِلَيْهِ**)[2].

حين تُغمَض عين الرأس، ويستغرق العبد في التفكر والتذكر والتدبر، تُفتح عين القلب التي تدعى البصيرة، وهي التي تعي حقيقة الحقيقة، وما وراء الأحداث، والحكمة من كل أمر، لأنها عرفت الله فعرّفها مصلحتها، حين تخلت عن النقائص رفعها وكشف لها الأرقى والأسمى.

---

[1] ومثله من حديث ابن عمر، أخرجه أبو نعيم في الحلية، والطبراني في الأوسط، والديلمي عن عبد الله.

[2] الإبانة الكبرى لابن بطة (2/ 456)، وكذلك عن الإمام علي وعن الإمام جعفر الصادق مرفوعا إلى النبي ﷺ.

حين يُظهِر العبد في بداية أمره طاعةً لله وتسليما، ينقله من باب الانقياد إلى باب الحب، يقول الله تعالى في الحديث القدسي:{ **ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**}[1]، فيفتح له مجالاً جديداً رحباً وفسيحاً، يحسّن له أخلاقه، ويصلح له باله، ويطمئن له قلبه، ويجعله شامة بين الناس، قال تعالى: {**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [الأنعام: 122].

لا يروي ظمأ القلب إلا الحب ولا يشفي العلّة إلا الخلّة، بأهل العلم والإيمان والإحسان، حيث يُفتح باب الوصال ويدوم الاتصال. فالروح محلها القلب وإذا أطلقت من عِقالها تم اتصالها، فتصبح مطلقة سيارة، تجوب الأكوان، تستطلع الأماكن قبل حلول الأجساد فيها، وتستشرف مجالس الطيب قبل انعقادها، يقول الإمام عليّ كرم الله وجهه: (**أرواح المؤمنين تلتقي قبل يوم وليلة من لقاء أجسادهم**)[2].

من تدرب على الإصغاء لنداء الروح يكاد يستشعر خطط المكر التي تحاك له، وتلهم صاحبها بما ينبغي وما لا ينبغي فعله وقوله، جاء في الخبر: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِرًا مِنْ قَلْبِهِ يَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ**»[3].

وعندما تنطلق الروح وينشرح الصدر ويطمئن القلب، البحر كله لا يروينا والكون كله لا يسعنا، جاء في الخبر: **يَقُولُ اللَّهُ تعالى: مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ** "[4].

يمتع الله العليّ القدير قلوب عباده النقية الصافية وأرواحهم السامية بلغة خاصة ، لا أهمية فيها للمكان ولا للزمان، تجتمع بأرواح من سبق وبمن قد يأتي ، لا شأن لها بالأسماء ولا

---

[1] البخاري عن أبي هريرة.

[2] **"إن أرواح المؤمنين تلتقي على مسيرة يوم وليلة، ما رأى واحد منها وجه صاحبه"**. البخاري في الأدب والطبراني في الكبير، عن ابن عمر.

[3] الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/ 99).

[4] إبن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (2/ 346).

بالأشكال، علاقتها مع مثيلاتها سمواً ونقاءً وارتقاء. تتبادل التحيات، ويقتبس بعضها من أنوار بعض، ويرتاح بعضها إلى بعض، ويتعلم بعضها من بعض.

وينعكس ما اقتبسته الروح على صاحبها، ثقةً بالله وسعةً في الصدر، وطمأنينةً في القلب، وسكينةً في النفس، وصفاءً وهدوءاً في الروع، وخيراً في القول، وعزيمةً في السواعد، وهمةً في الأرجل والأقدام، وعلماً وحلماً.

الروح القوية تحمل الجسد الضعيف، وجسد العاصين يثقل كواهل أرواحهم وينهكها.

لغة الأرواح لا تحتاج إلى حروف، والكلام المنمق لا يجدي عندها، كلماتها الأحاسيس وأوامرها الإلهام وحدودها شرع الله والأحكام، تستبشر بأقرانها وتضيق بأقران السوء، وفي الحديث: "**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها إئتلف، وما تناكر منها اختلف**"[1].

لا تقولوا صوفية إنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية. إنه البعد الثالث للإنسانية، البعد الخفي القويّ عند المتعلقين بذي القوة المتين تبارك وتعالى.

إذا خففنا علائق المادة دون مبالغة، خفت أثقالنا، وانقشعت ظلمات قلوبنا، فصارت أرواحنا رشيقة، في الكون طليقة. هذه هي النشوة الروحية، من هنا نستشعر الليلَ إذا عسعس، والصبحَ إذا تنفس ، هكذا تتحقق السعادة الداخلية، وهكذا تتولد الأفكار الإيجابية وترتقي النفوس وتنشط الهمم.

غذاء الأرواح باجتماع ثلاثة: صحبة طيبة تعلّم وتلقّح، وقرآن يتلى بفهم وتدبر، وذكر لله تعالى يسبُر الأعماق ويستخرج الجواهر.

نسأل الله عزّ وجلّ أن تكون عطاياه اليوم، صفحاً عن ذنوبنا السالفة، ورياً لقلوبنا العطشى، ونوراً نمشي به في الناس، ونوراً يضيء لنا الصراط يوم القيامة. وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

---

[1] اخرجه البخاري عن عائشة، وأحمد ومسلم عن أبي هريرة.

10–الأعضاء الباطنة

لي صديق، خبير بالسيارات الفاخرة والألبسة الأنيقة والأحذية اللماعة، عند كل إطلالةٍ علينا لا بد من أن يرتديَ شيئاً جديداً، ولو ربطة عنق أو حزاماً أو نظارة، وما أن يسلّم حتى يسأل: هل لاحظتم فيّ شيئاً جديداً؟ ثم يحدثنا عن ميزات ما اشترى، وعن دقة الصنع وشهرة المصنّع وارتفاع السعر وتناسق الألوان، إلى درجة أننا أطلقنا عليه لقبَ "زنبق".

ولنا صديق آخر يغلب عليه الصمت والتفكر، أنيق اللباس نظيفه، لكن قلما يشتري جديداً إلى درجة أننا تأقلمنا مع بضعة القمصان والسراويل التي يقتنيها، فغلب عليه لقب"سعادة المحافظ".

أطلّ زنبق علينا يوماً وهو يمشي مزهواً فخورا بألبسة جديدة من عنقه إلى قدميه، فطفح كيل سعادة المحافظ وخرج عن صمته لكن بهدوء، فقال لصاحبنا: يا أخي هل تعرف أعضاءك الباطنة كما تعرف أعضاءك الظاهرة؟ "أكل زنبق الضرب" حين لم يفطن لما وراء السؤال فأجاب: طبعاً فقد تعلمنا عنها الكثير في المدرسة. قال المحافظ: هاتِ مثل، قال زنبق: المعدة والكبد والكِلى وغيرها كثير، قال المحافظ: يا أخي سميتَ أعضاءً داخليةً محسوسة، لكن لك أعضاء باطنة روحية كامنة لا يصل إليها الأذى المادي بقدر ما تتأثر بالأذى الروحي.

أصغى زنبق وتابع سعادة المحافظ:

في هذه الحياة أهداف سامية غير الطعام والشراب والشهوة والشهرة وطلب السلطة، أن تعرف سبب وجودك والغاية منه، وأن تتعرف إلى خالقك، وتعترف به وله، وأن تذعن لما طلبه منك، وان تتقرب إليه بطرق دلك عليها ليسهل عليك الطاعة والاستجابة، وإن فعلت كنت من السالمين الهانئين والمطمئنين الفائزين.

سأل زنبق: **وما هي أدوات بلوغ هذه الأهداف السامية؟**

قال المحافظ: **روح وقلب وعقل ونفس تفعل فعلها في الجوارح**. أتدري ما وظائفها؟

صمت زنبق وأصغى وأصغينا جميعا، قال المحافظ:

الروح[1]: مكان التجليات. هي الصلة بين السماء وبين ابن آدم، تصله عبرَها الرسائل السامية.

والقلب: مهبط الأنوار والإلهام. الملِك الذي يرأس ما دونه يتلقى من الروح ويوجه الرعية.

والعقل: مكان فهم كلام الله تعالى. محل الإدراك والوعي والفهم والتحليل والاستنتاج.

والنفس: آهٍ من النفس، هي المتأرجحة بين السمو والدناءة، السمو إذا استدار القلب إلى الروح، والدناءة إذا استدار إلى الشهوات[2].

ثم الجوارح: وهي محل الأعمال. حواس وأعضاء تتلقى وتنفذ. لكنها تتفاعل وتردّ نتاجها إلى العضو الذي أمرها. وهي سبعة: العينان والأذنان واللسان واليدان والرجلان والبطن والفرج.

قال زنبق: **وكيف تعمل هذه الأدوات؟**

قال: جسد وروح اجتمعا ، برزخهما النفس. الروح تنشد السموّ. والنفس تميل إلى الجسد ومتطلباته، فتشد إلى أسفل قال تعالى: {**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**} [الأعراف].

---

[1] من محاضرات الشيخ الدكتور رجب ديب رحمه الله.

[2] المصدر السابق.

إنه صراع بين الخير والشر داخلَ الإنسان وخارجَه.

الروح جوهر نوراني علوي رباني، والنفس المهمَلة ظلمانية شيطانية.

الروح طيبة شأنها الموافقة، موافقة الخير والشرع والحلال، والنفس شأنها المخالفة، مخالفة الشرع والخير والحلال.

وأما القلب فمتقلب بينهما، إذا مال إلى أحدهما اتصف الانسان بصفته، فإما بالخير وإما بالشر، قال الله تعالى: {**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**} [الإنسان: 3].

وأما عمل الجوارح فسنتركه للقاء لاحق، تابع المحافظ: فانا واثق من أنك إذا أعجبك ما سمعت وتفكرت فيه، ستأتينا غداً وإن كان غير ذلك فلن تطلّ علينا إلا عندما تشتري جديداً يصلح للعرض على الناس، وفقنا الله وإياكم لنقوم بعمل يصلح للعرض على الله تعالى يوم القيامة.

11-القلب

موضع نظر الله تعالى و مهبط الأنوار والإلهام

هو موطن الشعور والوجدان والجحود والنكران، موطن العاطفة والقسوة، والرحمة والغلظة، والطمأنينة والخوف، والسكينة والقلق، والفرح والحزن، موطن الحب والبغض، والشجاعة والجبن، والحزم والتردد، والاطمئنان والقلق، موطن الصحوة والغفلة، والخشوع والنفاق، والإيمان والكفر. موطن السماحة والحقد، والنور والظلمة. أفلا يستحق العناية به؟

جاء في الأثر: يَقُولُ تعالى: **مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلَا أَرْضِي، وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ** ".[1]

إنه القلب، موضع نظر الله تعالى إلى العبد: -ح: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»[2].

إنه الوعاء القادر على الاستيعاب، الذي يمكنه ان يستقبل الحب والعفو واللين والرقة، قال عليه الصلاة والسلام: " **إن لله تعالى آنيةً من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها**"[3].

هو الذي يوجّه الأعضاء كلها، فإما إلى خير وإما إلى شر: قال ﷺ: ''**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**''[4].

---

[1] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ت الأرنؤوط (2/ 346).
[2] صحيح مسلم، عن أبي هريرة.
[3] الطبراني في مسند الشاميين للطبراني (2/ 19)، عَنْ أَبِي عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيِّ.
[4] متفق عليه ، عن النعمان بن بشير.

القلب هو موضع البصيرة التي ترى أبعد من البصر، قال تعالى: {... **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** } [الحج: 46].

ليس القلب مجرد عضلة تضخ الدم. فقد تبين أن فيه مراكز خاصة للذاكرة، مختصة بالمشاعر والأحاسيس. وهو جهاز حساس وخطير: يرسل ترددات يتبادلها مع القلوب الأخرى، ويؤثر على من حوله من الناس حتى ولو لم يبادلهم الكلام. كما يستطيع القلب القوي ان يؤثر على النشاط الدماغي لبعض من حوله من الأشخاص دون ان يكلمهم.

هو مصدر القوة التي وراء طور العقل. إذ العقل يدرك المحسوسات، لكن للقلب أن يدرك الغيبيات ويستشعر بها قبل حصولها.

قال تعالى: {**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**} [الأعراف: 179]، وقال: {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**} [محمد: 24].

هل يصاب القلب بأمراض؟ نعم

يتوسط القلب بين الروح وبين النفس، فتارة يصغي إلى نداء الروح فيسمو، وتارة ينجرف إلى ميول النفس، فتصيبه أمراض الران، والهوى، والشهوة، والقسوة، والزيغ... والنفاق أخطر أمراض القلب قال الله تعالى:{**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**} [البقرة: 10].

كذلك فإن القلب يموت فيما لا يزال صاحبه على قيد الحياة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**»[1]. أي تموت المشاعر والأحاسيس فيه فتطغى عليه الأنانية وتنعدم منه الانسانية.

القلب يتعذب بالقلق والنكد: {**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**} [طه: 124]. كما قال: {**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** (36)} [الزخرف].

صنّف رسول الله ﷺالقلوب فجعلها في أربع، قال:

" **الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: فَقَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ أَزْهَرُ وَذَلِكَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ وَسِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ , وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ فَذَلِكَ قَلْبُ الْكَافِرِ , وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ وَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ , وَقَلْبٌ مُصِحٌّ (أي يكاد يتعافى) , وَذَلِكَ قَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ , فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا مَاءٌ طَيِّبٌ , وَمَثَلُ النِّفَاقِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ , فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى صَاحِبَتِهَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ** " [2].

للقلب نوره وللقلب ظلمته: **تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ من سورة الزمر: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** [الزمر: 22]. **ثم قَالَ: «إِذَا دَخَلَ النُّورُ الصَّدْرَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ»**[3].

إذ أن لكل عمل صالح نوره الخاص ولكل عمل منكر ظلمته، والنور انوار متعددة غير متشابهة وكذلك الظلمة بحسب أنواع الأعمال.

---

[1] أحمد وابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة.

[2] المعجم الصغير للطبراني، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ .

[3] ابن المبارك ، الزهد والرقائق. نعيم بن حماد، الزهد (1/ 106)

للطعام الحلال نوره في القلب، وللطعام الحرام ظلمته.

للنظر إلى الحلال نوره، وللنظر إلى المحرمات ظلمته.

في ظلم الناس ظلمات، وفي إنصاف الناس أنوار.

في النظر إلى القرآن نور، ولكل صدقة نورها، وللمصلي نور ولتارك الصلاة ظلمة.

وظلمات المعاصي والغفلات تطفيء أنوار القلب، وتطمس قدرته على الفقه والفهم، وحتى على السمع: يقول الله تعالى:{**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...** } [الحج: 46].

لذلك وجبت العناية بالقلب، فهي تحتاج إلى تسكين وتطمين: {**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**} [الرعد: 28].

وتحتاج القلوب إلى عناية، وفي الحديث: "**إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل فما جلاؤها يا رسول الله قال: كثرة تلاوة كتاب الله تعالى وكثرة الذكر لله عز وجل**". [1]

تحتاج القلوب إلى غذاء وقوت القلوب الحب، وقد يخدع القلب بدايةً لقلة تجربته فيخفق لآلة او لإنسان. إلى ان يتعرف على الحب الحقيقي الذي لا يحول ولا يزول فيتمسك به. وعندما تنجلي مرآة المحب تنعكس عليها صورة المحبوب فتتكسب أخلاقَه وفضائلَه بلا عناء.

وفي لطيفة للإمام جعفر الصادق، **جعل إعراب القلب على أحد أربعة:**

(رفع وفتح وخفض ووقف، فرفع القلب في ذكر الله، وفتح القلب في الرضا عن الله، وخفض القلب في الاشتغال بغير الله، ووقفه في الغفلة عن الله:

[1] البيهقي، شعب الإيمان ، عن ابن عمر: «ذِكْرُ الْمَوْتِ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ».

فعلامات الرفع ثلاث: وجود الموافقة، وفقد المخالفة، ودوام الشوق. وعلامات الفتح ثلاث: التوكل عليه والصدق واليقين. وعلامات الخفض ثلاث: العجب، والرياء، والحرص. وعلامات الوقف ثلاث: زوال حلاوة الطاعة، وعدم مرارة المعصية، والتباس علم الحلال والحرام)[1].

وأخيراً فإن القلوب تمتحن: قال رسول الله ﷺ:

إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنْسَخْ مِنْ قَلْبِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ الْحَلَاوَةَ الَّتِي كَانَ يَجِدُهَا قَالَ: فَيَصِيرُ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ وَالِهًا طَالِبًا لِلَّذِي كَانَ يَعْهَدُ مِنْ نَفْسِهِ نَزَلَتْ بِهِ مُصِيبَةٌ لَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِثْلَهَا قَطُّ، فَإِذَا نَظَرَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، رُدَّ إِلَى قَلْبِ عَبْدِي مَا نَسَخْتَ مِنْهُ فَقَدِ ابْتَلَيْتُهُ فَوَجَدْتُهُ صَادِقًا وَسَأَمُدُّهُ مِنْ قِبَلِي بِزِيَادَةٍ، وَإِذَا كَانَ عَبْدًا كَاذِبًا لَمْ يَكْتَرِثْ بِهِ وَلَمْ يُبَالِ بِهِ''[2].

ونختم بدعاء النبي ﷺ: " **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وأَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرُّشْدِ وأَسْأَلُكَ شُكْرَ نعْمَتِكَ وحُسْنَ عِبادَتِكَ وأَسْأَلُكَ لِساناً صَادِقا وقَلْباً سَلِيماً وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ وأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وأَسْتَغْفِرُكَ مِمَّا تَعْلَمُ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ**"[3].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

[1] موسوعة الكسنزان، ج18، ص252.

[2] ابن المبارك ، الزهد والرقائق. نعيم بن حماد، الزهد (1/ 540). الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (6/ 63)، عن أبي ذر.

[3] أحمد والترمذي والطبراني، عن شداد بن أوس.

12–العقل

الجوهرة الهدية، خلق عظيم من الخالق العظيم، إنه العقل، روى الإمام الأوزاعي حديثاً رفعه إلى النبي ﷺ قال: " **لما خلق الله العقل قال له: أقبِل فأقبَل. ثم قال له: أدبِر فأدبَر، ثم قال له: أقعد فقعد، ثم قال له: أنطق فنطق، ثم قال: أصمت فصمت، فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، ولا أكرم، بك أُعرَف، وبك أُحمَد، وبك أُطاع، وبك آخذ، وبك أعطي، وإياك أعاتب، ولك الثواب، وعليك العقاب، وما أكرمتك بشيء أفضل من الصبر**"[1].

علم الله آدم بالعقل، وكان أول ما عقله من المقابلة الأولى، معرفةَ الله تعالى. فأمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم سجودَ التكريم لهذا الخَلق العظيم. قال تعالى: {**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73)**} [سورة ص].

والعقل لغةً: الحِجر والنُّهَى. قال تعالى: {**هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**}؟ [الفجر: 5]، وذو الحجر هو العاقل الذي قهر نفسه..

وقال عزّ وجلّ: {**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى**} [طه: 128]، والنهى لأنه ينهى عن القبيح وعما يخالف المنطق والطبيعة. فقال: {**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**} [العنكبوت: 43].

العقل موطن الذكاء والمخيلة والبداهة والذاكرة والإدراك والوعي... والناصية مكان القرار والمخ مكان الاستقرار ، أي الزمان والمكان والحالة الراهنة. والذاكرة طبقات والوعي درجات.

[1] كنز العمال (3/ 383)، عن الحسن عن الأوزاعي معضلاً.

العقل آلة دقيقة بها يتم التعلم والتكسب والجمع والحذف والتحليل والاستنتاج. من مميزاته: العلم والمعرفة والإدراك والفهم والمقارنة والتمييز والربط بين الأشياء.

كتب في العقل كثير من علماء المسلمين، قال الإمام أحمد الرفاعي: (**العقل ما عقل النفس وأوقفها عند حدها**)[1].

قال عمرو بن العاص: (**ليس العاقل من يعرف الخير من الشر ولكنه الذي يعرف خير الشرّين**)[2].

ومن العقل الفطنة، قال عمر:(**لست بالخب ولا الخب يخدعني**)[3]. ومن الفطنة كشف الحقيقة ثم الافصاح عن بعضها والتغافل عن أكثرها. قال تعالى: {**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ**...} [التحريم: 3].

والعقل يقدّم صاحبه عمن سواه: فقد كان رسول الله ﷺ يقرّب أصحاب العقول الراجحة على غيرهم فيقدمهم في الصف الأول من الصلاة خلفه مباشرة، ويقول: " **ليلني منكم أولو الأحلام والنهى**.[4]

والحالِم هو العاقل. وذلك لأن العاقل يتحلى بقدرته على حفظ العلوم وضبطها وهو ميزان النظر فيها وتحقيقها، وعليه فرز الباطل من الصحيح منها. وهذا هو الرَّشَد.

إنه خلق الله البديع، {**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ** } [النمل: 88].

كل مليمتر مكعب من الدماغ يحتوي ما يزيد عن ثمانين ألف خلية عصبية، وكل خلية عصبية يتفرع منها حوالي عشرة آلاف نهاية عصبية، وتتصل النهايات العصبية لكل

---

[1] الشيخ أحمد الرفاعي ، البرهان المؤيد، ، ص22، نقلاً عن موسوعة الكسنزان ج16، ص54.

[2] الإشراف، في منازل الأشراف؛ لابن أبي الدنيا (ص 264).

[3] أدب الدنيا والدين (ص: 26).

[4] مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الله ابن مسعود.

خلية بمثيلاتها في الخلايا المجاورة، مكونةً عدداً يقدر بتريليونات التريليونات من الوصلات العصبية بين الخلايا، تشكل عدداً لا يكاد يحصى من الدوائر الكهربائية، وهذه الوصلات والدوائر هي التي تنقل الإشارات والأوامر بين الخلايا الدماغية، ثم بينها وبين الأعضاء الأخرى من جسم الإنسان.

العقل هدية الله تعالى زرع فيه فطرة الإيمان ومتعه بقدرة التمييز بين الخير والشر، قال تعالى:

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)} [سورة الروم].

عقل المؤمن ودينه لا يختلفان ولا يفترقان، حتى يوقن العبد أن وجهة النظر بين العلم والدين والمنطق واحدة، قال الأصمعي: **قرأت، وإلى جنبي أعرابيٌ، هذه الآية من سورة المائدة: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ }، وبدلاً من أن أقول: {وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38)} قلت: والله غفور رحيم، سهواً، فقال الأعرابي: كلام مَن هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع**[1].

هكذا يظهر دور العقل وقدراته، فالعاقل هو (**المتصف بالعلم والمعرفة والإدراك والفهم والتمييز**)، على حد قول الشيخ علي الخواص أستاذ الإمام الشعراني رحمهما الله تعالى. [2]

---

[1] الكشكول (2/ 112)، الهمذاني ، بهاء الدين (المتوفى: 1031هـ).

[2] الإمام عبد الوهاب الشعراني، مخطوطة الجواهر والدرر، ص 125، نقلاً عن موسوعة الكسنزان، ج16، ص61.

وللعقل دور هام في استقامة صاحبه، قال إبن عطاء الله السكندري: (**يُعرف العاقل بثلاث: بملكته لنفسه عند الشهوة وعند الغضب وبتركه ما لا يعنيه**)[1].

والعقل مهما أدرك ينقصه الكثير وهو قابل للخطأ ولذا يسترشد بالقلب السليم. ومَا مِنْ رَجُلٍ عَاقِلٍ إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ عَيْبَ نَفْسِهِ . لأن العقل المستقيم قادر على التمييز والتقييم والمحاسبة.

وقد أولى الإسلام للعقل اهمية بالغة: فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ رَجُلٍ شِدَّةُ عِبَادَةٍ سَأَلَ: «كَيْفَ عَقْلُهُ؟» فَإِذَا قَالُوا حَسَنٌ، قَالَ: «أَرْجُوهُ» فَإِنْ قَالُوا غَيْرَ ذَلِكَ قَالَ: «لَمْ يَبْلُغْ»، (أي لم يبلغ الرجل ما قاله الناس عنه)، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: وَذُكِرَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فيه شِدَّةٌ وَعِبَادَةٌ , فَسَأَلَ: «كَيْفَ عَقْلُهُ؟» فَقَالُوا: لَيْسَ بِشَيْءٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ , فَقَالَ: «لَمْ يَبْلُغْ صَاحِبُكُمْ حَيْثُ تَظُنُّونَ»**[2].

العقل أيها الأحبة مفتاح للمعرفة، وأية معرفة أهم من معرفة بديع خلق الله وعظيم خلقه، وصولاً إلى التفكر في عظمة الخالق، علماً وتهيباً وخشيةً وتحسبا؟

وختاماً فإن للعقل دور خطير نحتاجه لتدبير دنيانا وآخرتنا، قال عليه الصلاة والسلام: " **ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، أو يردُّه عن ردى**".[3]

لنا مع العقل لقاء آخر إن شاء الله.

---

[1] موسوعة الكسنزان، الجزء 16، ص92.

[2] نوادر الأصول في أحاديث الرسول (2/ 353)، عَن أبي الدَّرْدَاء.

[3] البيهقي، شعب الإيمان (6/ 367)، عن عمر بن الخطاب.

13- العقل بين الرقي والانحطاط

ما من عاقل يتلقى هدية ثمينة، فيقدم على تعطيلها وتخريبها. وهل يحق للعبد أن يعطِّل عقله؟ وهل ينبغي للعقل أن يغيب عن الوعي والإدراك؟

ولذلك حرم الشرع المسكرات بانواعها، لأنها تذهب العقل، ومن عطل عقله عوقب وزُجِر، ويؤدي ذهاب العقل إلى خطأين جسيمين: أحدهما روحي، وهو ان يغيب العقل عن خالقه ولو طرفة عين. والثاني ما يرتكبه العبد من الفواحش إذا غاب عقله.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْخَمْرُ أُمُّ الْفَوَاحِشِ وَأَكْبَرُ الْكَبَائِرِ مَنْ شَرِبَهَا وَقَعَ عَلَى أُمِّهِ وَخَالَتِهِ وَعَمَّتِهِ**»[1]، و(**سمّي الخمر خمراً لأنه يخامر العقل أي يستره كما يفعل الخمار بوجه الانسان**)[2].

العقل آلة مسيَّرة ومسيِّرة، محله الدماغ لكنه يستمد نوره من القلب، إذا أمره القلب أثمر وأنتج وإذا تعطل القلب سيّرته النفس والأهواء.

لديه القدرة على الابتكار والإبداع والتعديل والتطوير، كما يملك القدرة على الاتلاف والتخريب والتدمير، وفي ذلك قيل: (**عقل المؤمن من وراء قلبه، وعقل المنافق من وراء لسانه**).

إذا استجاب العقل لأوامر خالقه أمدّه بالعلوم، قال تعالى: {**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**} [البقرة: 282]. وقال أيضاً: { **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)**} [العلق].

---

[1] الطبراني في الكبير، وابن حبان والدارقطني عن ابن عباس.

[2] شرح السنة للبغوي (11/ 352)، عن عمر بن الخطاب.

إذا أمده القلب الموصول بالله فلا حدّ لعلمه لأن علمه صار من عند العليم العلام. **{قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}** [الكهف: 109]

قال الإمام أحمد الفاروقي السرهندي: (**العقل ترجمان الروح، يتلقى القلب العلوم من الروح، ويترجمها العقل ويحررها ويلخصها، حتى يفهمها المتعلقون بعالم الخلق**)[1].

العقل مخلوق: هو (**آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية**) [2]. يقول عليه الصلاة والسلام: ''**تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا**''[3]. هو آلة التعرف على خلق الله لمعرفة عظمة الله وقدرته وجلاله.

بإمكان العقل أن يتصور ما يتجاوز حدّي البصر: أبعد منه وأقرب منه. التفكر في الكون بأكمله، في المجرات كما في أدق الخلائق وأصغرها. قال تعالى: **{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}**، [آل عمران: 191]. وقد يغيب عنه أمر على مرأى منه ومسمع. كما يمكنه تخيل ما يوصف له مثل مشاهد اليوم الآخر والجنة والنار...

لكنه أعجز من أن يتصور شيئاً عن ذات الله تعالى، لأنه غير مصمم لذلك، وهذا الأمر فوق قدراته وإمكاناته، ولذلك قال بعض المتكلمين: كل ما خطر ببالك، (أي من الكيفيات التي يدركها الناس) فالله بخلاف ذلك.

إذا عقل العقل الحقيقة الأبدية هُدِي إلى الصراط المستقيم. وإذا عطل العقل الحقيقة دُعِيَ صاحبه مجنونا. ذكر أن بعض الصحابة الكرام رأوا رجلاً مختل العقل، فقالوا

---

[1] الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي، رسالة المبدأ والمعاد، ج2 ص57، نقلاً عن موسوعة الكسنزان، ج16، ص56.

[2] الشيخ أبو بكر الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص63.

[3] أبو الشيخ في العظمة عن أبي ذر وعن ابن عباس.

مجنون، فقال عليه الصلاة والسلام: ''**لا تقولوا مجنون بل قولوا مريض، المجنون من يعصي الله تعالى**''.

ويثيب الله الناس بقدر ما عقلوا من العلم والفهم، ففي الحديث: ''**إن العبد ليصلي الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها**''[1].

وأمر الله تعالى الأنبياء والعلماء أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم، ومَنْ كَانَ عِلْمُهُ أَكْثَرَ مِنْ عَقْلِهِ خَشِي عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ عَقْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ عِلْمِهِ يرجى منه.

ومن لم يعمل عقله كان بين الأحمق والأخرق: فقد سمي العقل عقلاً لأنه عقل عن الله مراده وأمره ونهيه. ومن لم يُعمِل عقله كان أحمقا.

فالأحمق نقيض العاقل، وأما الأخرق فهو الذي يتصرف بصورة غير مرضية وغير متوقعة. والريح الخرقاء هي التي تدور في كل وجه. فالأحمق لا يوصل إلى خير إذا كلفته، والأخرق يورطك في مآزق لا تتوقعها.

روى الثعلبي قصتين في أحمقين أحدهما قرأ الآية فدعا الله تعالى أن يبيض له وجهه يوم تبيض وجوه، وأن يسوِّده له يوم تسودّ وجوه. وقرأ آخر في سورة الانشقاق فدعا الله أن يعطيَه كتابه بيمينه ويحاسبَه حساباً يسيرا، ثم يعطيه كتابه بشماله ويحاسبه حساباً عسيرا.

والمؤمن العاقل هو الذي يستخدم عقله في أمور الدنيا، كما يستخدمه لتأمين آخرته. قال عليه الصلاة والسلام: «**رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ**».[2]؛

[1] أبو داود عن عمار بن ياسر، وأحمد والنسائي عن كعب بن عمرو السلمي.
[2] البزار والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة.

وقال: «**الدِّرْهَمُ أَعْطَيْتُهُ فِي عَقْلٍ**، (أي درست أمره قبل أن أقدم عليه)، **أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ خَمْسَةٍ فِي غَيْرِهِ**».[1]

ومن كان مسرفاً كان ممن عطل عقله، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يَا أَبَا ذَرٍّ لَا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلَا وَرَعَ كَالْكَفِّ، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ**"[2].

وخلاصة القول جاءت في الحديث الشريف التالي:

«**لَقَدْ سَبَقَ إِلَى جَنَّةِ عَدْنٍ أَقْوَامٌ مَا كَانُوا بِأَكْثَرِ النَّاسِ صَلَاةً وَلَا صِيَامًا وَلَا حَجًّا وَلَا اعْتِمَارًا، وَلَكِنَّهُمْ عَقَلُوا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَوَاعِظَهُ، فَوَجِلَتْ مِنْهُ قُلُوبُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَخَشَعَتْ مِنْهُمُ الْجَوَارِحُ، فَفَاقُوا الْخَلِيقَةَ بِطِيبِ الْمَنْزِلَةِ، بِحُسْنِ الدَّرَجَةِ عِنْدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، وَعِنْدَ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ**».[3]

ما هذا الخلق العظيم والفضل الكريم؟ الحمد لله رب العالمين على هذه النعمة العظيمة التي خصّ بها آدمَ وبنيه.

---

[1] الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (ص: 85)، عَنْ أَنَسٍ. ومثله حديث: **(درهم أعطيته في عقل أحب إلي من مئة في غيره)** عن انس أيضاً.فيض القدير (3/ 524).

[2] ابن ماجه والطبراني في الكبير وابن حبان عن أبي ذر.

[3] الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين (ص: 83) عَنْ عَلِيٍّ.

14-النفس

موعدنا اليوم مع النفس البشرية، قال الله تعالى: {**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** (16)} [سورة ق].

النفس خلقٌ من خلق الله تعالى، وهي الحالة البرزخية الناجمة عن التقاء الروح بالجسد. حين يتوفى الإنسان تعود الروح من حيث أتت، وأما النفس فقد ارتهنت بما كسبت. قال تعالى: {**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** } [المدثر: 38]. هي التي تشعر باللذة وبالألم الجسدي والنفسي كذلك. تنقبض حينما تؤمر وتزجر، وتتعاظم حينما تُرجى وتتأمّر، تحب الفخر والتعالي، ترغب النيل من كل شيء إلا الطاعة، هي موطن الشهوة والهوى، وفيها يعشش الحقد والحسد. قابلةٌ للرقي أو للانحطاط، قال تعالى:{**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)**} [الشمس].

أس الخلل يكمن في النفس وينبغي كشفه ثم علاجه **قيل عنها أنها أشد على الإنسان من سبعين شيطاناً** ، قال الشاعر[1]:

توَقَّ نفسك لا تأمن غوائلها ... فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

قال الله تعالى: {**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** (53) } [يوسف].

وقال تعالى : {**حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** } [البقرة: 109]. فإذا استفحلت سيطرت على العقل والقلب، قال تعالى في مثل ذلك : {**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ**} [المائدة: 30].

[1] من كتاب بحر الدموع لابن الجوزي (المتوفى: 597هـ).

هي كالتلميذ الطائش، إذا زُجرت رضخت واستكانت. وإذا أهمِلت توجهت إلى الجسد وملذاته، ففسدت واستغرقت، وغرقت في متاهات الدنيا: في طلب المادة والشهوات البهيمية ومالت إلى النقائص. تأمر بالشهوات واتباع الأهواء واتباع الظنون، قال تعالى: {**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ**} [النجم: 23].. فيها تكمن الهواجس والظنون والنقائص وتصاب بأمراض، وأمراضها معدية تبلغ القلب كما تبلغ جلساءها ولها شرور.

ومما جاء في خطب النبي ﷺ: " ... **ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**..".

ويقول الله تعالى فيها: {**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**} [الحشر: 19].

أمّر الله تعالى الأعضاء الباطنة بعضَها على بعض، فأمّر الروح على القلب، والقلب على العقل، والعقل على النفس، والنفس على الجوارح. ومن عصى منهم أميرَه، قُطِع عنه إمدادُه، فاستعاض غذاءه من الباطل.

ولذلك فإن النفس المهملة هي أسّ المعاصي، وموطن كل مرض نفسي، وسبب وسوسة الصدر، وأصل كل رذيلة، هي مستودع الخبائث حيث يجثم كل ما يحيكه الانسان في صدره، ويكره أن يطلع عليه الناس.

لَمّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قالَ: يا رَسُولَ الله عَلّمْنِي الكَلِمَتَيْنِ اللّتَيْنِ وَعَدْتَنِي، فقالَ عليه الصلاة والسلام: " قُل اللّهُمّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرّ نَفْسِي"[1].

والحديث : "**القلب ملِك، وله جنوده؛ فإذا صلُح الملِك** (أي هيمنت عليه الروح) **صلح جنوده، وإذا فسد الملك** (أي سيطرت عليه النفس) **فسدت جنوده.**".[2].

[1] الترمذي عن عمران بن حصين.
[2] البيهقي في شعب الإيمان (1/ 257)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

في داخل كل إنسان معارك عنيفة تدور بين جبهتين: جبهة النفس يؤازرها الشيطان والهوى، وجبهة الروح يعينها الله تعالى والذكر، ويتقلب القلب بين الجبهتين فيذعن للمنتصر منهما. وللإنسان أن يقرر فإما الانسياق والتبعية خلف الشهوات والرذائل، وإما المجاهدة حتى يتكشف الإنسان قدرات الروح، ويرتقي إلى عوالم لا تدرَك إلا بتشمير السواعد، وصيام الهواجر، وقيام الليالي، والإكثار من ذكر الله تعالى.

ولا يزكي مخلوق نفسه فكل نفوس الخلق تحتاج إلى من يزكيها ولا أحدَ معصوم، وكلّ ابنِ آدم خطّاء حتى المؤمن الحريص، قال تعالى: {**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**} [النجم: 32]. وللحديث: "**ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيمٌ عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إن المؤمن خلق مفتناً توابا، نسيّا، إذا ذُكِّر ذكر** "[1].

وفي الحديث الشريف:" **الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**"[2].

كلٌ إنسان ودون استثناء، يحتاج إلى صاحب نفس مزكّاة، سبقت له التجربة، يدله على أمراض نفسه ويصف له الدواء المناسب.

اللهم لا تكلنا إلى انفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك وأصلح لنا شأننا كله لا إله إلا أنت.

[1] المعجم الكبير للطبراني (11/ 304)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.
[2] أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني عن شداد بن أوس.

15- أمراض النفس

جلس صديقنا زنبق كالطفل يصغي بين يدي صديقنا المحافظ، الذي افتتح قائلا: إذا تعرّف المرء على مواطن القوة والضعف في نفسه، وعرف أمراضها ضمِن أن لا تقطع عليه الطريق إلى الله تعالى. وقد جاء في الأثر: **(من عرف نفسه عرف ربه)**[1]، والمعنى أن من عرف مكامن نفسه أمكنه سلوك الطريق إلى مرضاة ربه، **وأهم أمراض النفس ثلاثة: الخواطر والعيوب ثم الشرور**، فإذا لم تكافَح خواطر النفس استفحلت عيوبها، وإذا لم تعالج عيوبها، انعكست على الجوارح، وتفجّرت شراً وخطراً على الناس. **أما خواطر النفس فهي خمسة: تهوى وتشتهي وتسوّل وتوسوس وتلحّ:**

أ-النفس تهوى : هو انجراف النفس وراء شيء من الدنيا حلالاً كان أم حراماً بطريقة تغلِب العقل وتُشغِل القلب، لا ينفع معها علمٌ ولا معرفة، قال الله تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}** [الجاثية: 23]، ويحذرنا رسول الله ﷺ فيقول: **"حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ"** [2].

ب-النفس تشتهي: من الملذات بلا حدود وبلا ضوابط: شهوات اللسان والطعام والنوم والفرج والنظر إلى المحرمات. يقول رسول الله ﷺ للمتزوج: " **إن المرأة تقبل في صورة**

---

[1] فيض القدير (5/ 50)، وفي كيمياء السعادة (ص: 124): "من عرف نفسه فقد عرف ربه"، نسبه الإمام الغزالي إلى النبي ﷺ.

[2] أبو داود وأحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب، عن أبي الدرداء.

شيطان وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه "[1]. وأما للعازب فيقول: "..**فعليه بالصوم فإنه له وجاء**"[2].

والشهوات تترى: من شهوة الطعام والشراب، إلى شهوة التزين والملبس، إلى شهوة الزهوّ والاقتناء من كل فاخر وجديد وفريد متميز وثمين، إلى شهوة الجنس، وشهوة ما عند الغير ولو كان بخساً، وصولاً إلى شهوة السلطة... وكلما نزا الانسان نزوة اشتهى نزوة أخرى، حتى يغرق في الشهوات فيفقد الحياء ليبلغ حد المجاهرة بالمعصية.

ج–النفس تسوّل: أي تزيّن وتسهل، تزين الحرام وتسهّل ارتكابه، قال تعالى على لسان سيدنا يعقوب: {**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**} [يوسف: 18]، وقال جلّ وعلا: {**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ..**} [فاطر: 8]، وعلى لسان السامريّ قال تعالى: {**قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**} [طه: 96]

د–النفس توسوس: كما يوسوس الشيطان، قال تعالى: {**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**} [ق: 16]، هي أخفى من دبيب النمل، تتخفى في جلد صاحبها وتمتزج بحسه وعصبه حتى يظن أنها لا تنفصل عنه، لكي لا يحاسبها فإما أن يحاسبها هو، كما قال رسول الله ﷺ: " **الكيس من دان نفسه**"[3] ، أو ينتظر يوم القيامة، يقول الله تعالى في ذلك: {**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** } [الإسراء: 14]، حتى يفصل الله تعالى بينهما.

---

[1] صحيح مسلم 2/ 1021، عَنْ جَابِرٍ.
[2] البخاري 4779 , 1806 ومسلم) 1 - (1400) والترمذي 1081 والنسائي 2240 وأبو داود 2046 , وأحمد 4271، عن ابن مسعود.
[3] إبن ماجه وأحمد والترمذي والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب. عن شداد بن أوس.

–وتشتد الوسوسة عندما يصغي القلب إلى داعي الإيمان، فتكره النفس أن يطيع ويهتدي فتشتد عليه، فلا يخشيَنّ العبد من الوسوسة لأنها تزول سريعاً بتجديد الطهارة أو الوضوء وبذكر الله تعالى.

لم يعاتب النبي ﷺ أصحابه عندما شكوا إليه الوسوسة في نفوسهم ولم يجرؤا على البوح بها، بل سألهم مستبشراً؟ "**أو قد وجدتموه**" ؟ قالوا: نعم، قال: "**ذاك صريح الإيمان**"[1].

هـ–النفس تلح: والوساوس تكون إما من الشيطان وعلامتها تنوعها لتلهيك عن الذكر، وهي تطفوا وتخنس وتكفيها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، وإما من النفس الأمارة بملذات الحياة والشهوات واللهو فتكون علامتها إلحاحها ونفاد صبرها. قال تعالى: {**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [الحجرات: 5].

وإذا اشتدت الوسوسة على المرء فليضع يده اليمنى على صدره وليقل:(سبحان الملك القدوس الخالق الفعال، {**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (19) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (20)**} [إبراهيم: 19، 20]).[2]

وأقوى ما يزيل الوسوسة هو ارتباط القلب بأهل الله، ففي جوارهم يطمئن القلب ويبرأ العقل من الشك، وتمتثل الجوارح لأمر الرب، فلا أجمل من أن يجد العبد إجابات سريعة على تساؤلاته، فيتعلم كيف يقفل المنافذ في وجه النفس، وفي وجه الشيطان.

قال المحافظ لصديقنا زنبق: هذه الميول إذا لم توضع لها الحدود تصبح عيوباً، والعيوب شرورا، وهكذا تظهر أمراض النفس، ولا بد لها بعد ذلك من طبيب وعلاج، وعليها أن تلبي وتذعن حتى تصح. وإلى لقاء آخر يا زنبق إن شاء الله مع عيوب النفس وشرورها.

---

[1] مسلم 209 - (132) وأحمد وأبو داود. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

[2] الإمام عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، مكتبة المعارف-بيروت 1993 ج1 ص120.

16-تمييز الخواطر

ما الذي يجول في عقل ابن آدم؟ من أين تصدر الخواطر التي تلوح بذهنه؟ كيف تتطور الفكرة في داخله؟ وكيف يميز بين هذه الخواطر؟

قد سمي خاطراً لأنه يخطر، أي يمر مسرعاً ولا يستقر إلا إذا لاقى هوىً في النفس، فيتحول إلى هاجسٍ يُلحّ حتى يصبح فكرة، والفكرة تتحول إلى نيّة، والنيّة تلهِم بالخطة، والخطة بداية العمل، والعمل إما صالح فنثاب عليه، وإما طالح كالح نحاسب عليه. فالحساب إذن ليس على الخاطر، بل على العمل، لأنه صدر عن سابق إصرار وتصميم، بعد عدة جولات ومراجعات، يتم تداولها بين الروح والقلب والعقل والنفس.

وقد علّمنا رسول الله ﷺ أن خواطر الانسان تنقسم إلى نوعين أساسيين، خاطرِ خير وخاطرِ سوء، يقول عليه الصلاة والسلام: " **إن في القلب لَمَّتان لمّةٌ للملَك ولمةٌ للشيطان فأما لمّة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، واما لمّة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيبٌ بالحق**"[1].

ويسهل التمييز بينهما إذا فقهنا معنى الحديث الشريف: " **البِرُّ ما اطْمأنَّت إِلَيْهِ النَّفْس وَاطْمأنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، وَالإِثْمُ ما حاكَ في النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ**" [2]،وفي رواية "**وكرهت أن يطلع عليه الناس**"[3]. وقد **كان ﷺ يستعيذ من وسوسة الصدر وشتات الأمر**[4]. فالقلب وهو سيد بقية الأعضاء يتأثر إذن سلباً وإيجاباً. من هنا نفهم معنى {**في قلوبهم مرض**}، ومعنى أن **يخرِج الله أضغانهم**.

---

[1] ثم تلا قوله تعالى: {**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**}. أخرجه الترمذي وحسنه، والنسائي في الكبرى من حديث ابن مسعود.

[2] الإمام احمد عن وابصة.

[3] مسلم 14 - 2553 والترمذي 2389 , والبخاري في الأدب المفرد مخرجا (ص: 110) عَنْ نَوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ.

[4] سنن الترمذي ت بشار (5/ 421)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،

إذن صار من واجب المؤمن أن يتعلم كيف يميّز بين الخواطر التي تراوده، وتتلاطم داخلَ نفسه، عليه أن يعلم حتى يحذر.

وفروع الخواطر أربعة: إثنان يسوّلان له الشر واتباع الباطل، واثنان يحضّانه على الخير والحق، فأما خاطر الشر فمصدره النفس الأمارة ويدعى الهاجس، بينما يصدر خاطر الباطل عن الشيطان ويدعى الوسواس. وأما خاطر الخير فمصدره المَلَك ويدعى الإلهام، وأما خاطر الحق فمصدره الله تعالى ويدعى الخاطر الرباني أو التجلّي.

خاطر الشيطان الوسواس الخناس ، يوسوس ثم يتراجع، يغري بالمعاصي، أي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وعلامته تنويع المغريات، كلما رفض العبد إغراءً معيناً عرض عليه الشيطان إغراءً غيره، لعله يستهويه. وكلّه مخالف لشرع الله ، يوعز بالشر ويأمر بالسوء، قال عنه الله تعالى: { **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**} [البقرة: 169]. وكلما كثرت الذنوب تكاثرت خواطر الشيطان، قال الله تعالى: {**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**} [المطففين: 14].

وأما خاطر النفس فيندب إلى اتباع الشهوات وحظوظ النفس، ويكشفه إلحاحها على الخاطر ذاته، وعلامته كدر في القلب، وانقباض في الصدر وضيق في الأخلاق، ومن علاماته العجب والتكبر والحسد والغَيْرة والتقاعس. ومن ضيّق على النفس أهواءها وميولها ضيّق تلقائياً على الشيطان لأنه غالباً ما يدخل عبرها.

وأما خاطر المَلَك فموافق للعلم والشرع، أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، إيحاءٌ بعمل الخير وتذكيرٌ بأهل الصلاح والإيمان، وإلهامٌ بأفكار صافية سليمة، وعلامته راحة في النفس، وسلامة في الصدر وبهجة فورية تلي عمل الخير. ومن ذلك قول سيدنا عمر رضي الله عنه: (**إني لأجهز جيشي وأنا في الصلاة**).

وخاطر الملك يأمر وينهى وفقاً لما ورد في كتاب الله، إذ أن الأمر الإلهي قد سبق وصدر وأنزل في الكتاب الكريم، والمَلَك هو الذي يتعهده لدى بني آدم.

وأما التجلّي أو الخاطر الرباني، الذي هو من الحق تبارك وتعالى، فهو خاطر مباشر من الخالق إلى خلقه يذكر بعظمة الله وبالتوحيد وبالحب والرحمة، وعلامته الخشوع أو القشعريرة أو الدمعة ولو كرأس الذباب. وهو مدعاة للثواب والمغفرة، كأنه المخاطبة، فمعاتبة للمخطيء ومنادمة للمحسن، وفي الحديث الشريف: "**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما تحات عن الشجرة البالية ورقها**".[1]

والخاطر الرباني هو الذي يكشف الغلالة عن قلب العبد المجدّ، فيزداد معرفةً بكلام الله، وفهماً لما كان يجهل منه، وكشفاً لما غاب عنه من قبل، وحكمةً وحسنَ تصرف في معالجة الأمور والحوادث. ويأتي هذا الخاطر العظيم إما بشعور جلال من الهيبة والخشية، أو بشعور جمال محبةً ورضىً.

ومن كان في قوتِه حرام أو كان غارقاً في المعاصي، عجز عن التمييز بين الإلهام والوسوسة. قال تعالى: {**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا..**} [فاطر: 8].

ومن أراد أن يحد من الوساوس الشيطانية، عليه أن يعتاد على الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وليحافظ على الوضوء وعلى الصلوات المكتوبة، قال تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**} [العنكبوت: 45]، وقد شكا بعض أصحاب النبي ﷺ إليه شاباً قالوا يسرق ويصلي فقال: "**سوف ينهاه ما تقول**"[2]، أي سوف تنهاه مثابرته على الصلاة.

ولمكافحة الهواجس النفسية لا تتم السيطرة على النفس إلا بمخالفتها، وأهم مخالفة هي صيام النهار وقيام الليل لقوله ﷺ لأحد أصحابه: "**أعنِّي على نفسك بكثرة السجود**"[3]. ولأن الصلوات المكتوبة محددة العدد، فالكثرة إذن تكون في النوافل وخاصة

---

[1] البزار في مسنده والبيهقي في الشعب عن العباس رضي الله عنه.
[2] احمد والبزار وابن حبان عن أبي هريرة.
[3] أحمد 16629 ومسلم 226 - 489 والنسائي 1138 وأبو داود 1320، عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

في القيام والتهجد. قال الله عز وجلّ: {**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**} [هود: 114].

وأما من أراد أن يقوّي إلهامه السليم الرادع، فعليه أن يتعهد قراءة القرآن، فيتآلف قلبه وعقله وإدراكه مع أمر الله ونهيه، في مختلف الظروف والأحوال، حتى يصبح كلام الله مألوفاً لديه، تسمعه أذناه ويهتف به قلبه، ويستجيب له عند كل تلاوة، فهو أعز وأقدس كلام، ويجب أن يصبح أحب الكلام إليه، حتى يصبح بإمكانه أن يلبّي فيقول: {**سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**} [البقرة: 285].

وأما الخاطر الرباني فليس بيد الانسان، إلا أن يُقوّيَ استعداده لتلقيه وفهم مقصوده، وذلك بدوام التقرب إلى الخالق، قال رسول الله ﷺ: " **تعّرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**"[1]. فلا يعرفه إلا إذا أكثر من ذكره، فيصبح أقرب وأرحم وأدفأ وأعلم وأرق، وكل أنواع الذكر موصلة وأهمها ذكر السر، ففي الحديث القدسي: " **وإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي**"[2]. حتى ينال درجة: "**إذا رأيت عبدي يذكرني فأنا أذنت له بذكري وأنا أحبه**".(حديث قدسي).

آه لو ينظر كل منا إلى داخله، وليدقق أهو أسير هواجسه النفسية أو وساوسه الشيطانية؟ أو أنه ينعم براحة البال وصدق الحال، وبوضوح الرؤيا وبالقدرة على التمييز بين الحق والباطل؟ ومتى عرف المؤمن كيف يميّز بين خواطره، كافح خواطر السوء، ونمّى خواطر الخير، حتى يصبح أمره كله إلى خير، عند ذلك يصبح أهلاً للتلقي، إلى أن يتسلح بالمناعة عند التلاقي مع أهل الغفلة والمعصية، فيصبح جديراً بأن يلقِّح المرضى دون أن تصيبه العدوى.

---

[1] أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الآداب، عنِ ابن عباس.
[2] متفق عليه ، عن أبي هريرة.

لا حلّ للتمكن من التمييز بين الخواطر إلا بأن يخلو المرء بنفسه ما استطاع، وأن يراجع أفكاره وأقواله وأعماله، وأن يكثر من ذكر الله، وأن يتفكر حتى ينشرح الصدر، ويصفو القلب، وينجلي العقل، ويسلم القرار والعمل. وليتفكر فيما قاله سيدنا موسى للخضر عليهما السلام: {**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**} [الكهف: 66] ؟ فمن أراد أن يحسن التمييز بين الخواطر عليه أن يجِدَّ بحثاً عن المعلّم.

17-الجوارح

جَوارِحُ الإِنسان: أَعضاؤُه ومنافذُ جَسَدِهِ ، وَاحِدَتُهَا جَارِحَةٌ. لأَنهن يَجْرَحْن الْخَيْرَ وَالشَّرَّ أَي يَكْسِبْنَهُ. وهن سبع: العينان والأذنان واللسان واليدان والرجلان والبطن والفرج.

هن أدوات تنفيذ الأوامر التي توحي بها الأعضاء الباطنة من قلب وعقل ونفس، فتنكشف النوايا والرغبات، عبرهن يظهر السر إلى العلن، وعند ذلك تكتب الحسنات والسيئات، وبهن ينزل العقاب. والمحصلة هي من جنى هذه الجوارح.

قال عليه الصلاة والسلام: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[1].

والجوارح تنفذ الأوامر وتكشف الدواخل، فالعين تسترق النظر إلى ما حرم الله، وتنظر بشهوة تثير الرغبة وتدفع إلى المعصية، قال الله تعالى في سورة النور: {**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**}... إلى آخر الآية من سورة النور.

وقال تعالى: {**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**} [الإسراء: 36]، ويقول رسول الله، ﷺ: "**اللسان ترجمان القلب**". ويقول كذلك: " **إِذَا أَصْبَحَ**

[1] صحيح مسلم عن أبي هريرة.

ابْنُ آدَم فإنَّ الأعْضَاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتقِ اللَّهَ فِينا فإنما نَحْنُ مِنْكَ، فإنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وَإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا "[1].

واليد تسرق وتضرب وتقتل، او تعطي وتعين وتفعل الخيرات، والرجل تمشي إما إلى الخير والحق، وإما إلى الشر والباطل، وشتان بين قدم تمشي إلى معصية، وقدم تمشي إلى المسجد أو في جنازة او لعيادة مريض. وفي البطن البلاء الأعظم، بأكل الحرام بدلاً من الحلال، وبإتخامه بأصناف الطعام والأطايب، فكثرة الطعام تثقل البدن وتحوج إلى النوم وتعيق العبادة. والأكل بمقدار ينشط الجسم ويعين على الطاعات. والأكل بنيّة التقوي على الطاعات عبادة، ويؤجر العبد عليه.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَإِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ** " [2] ، وذلك لأنه لا يثق بيوم غد ولا بالرزاق العلي الكريم.

وأما عن اللسان والفرج، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ**». [3]

تلك هي الجوارح التي ترتكب الآثام في الدنيا فينكشف صاحبها للناس إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، " **قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِأَصْحَابِهِ: " مَنِ الْمُؤْمِنُ؟ " قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "الْمُؤْمِنُ الَّذِي لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ اللهُ مَسَامِعَهُ مِمَّا يُحِبُّ، وَلَوْ أَنَّ عَبْدًا اتَّقَى اللهَ فِي جَوْفِ بَيْتٍ إِلَى سَبْعِينَ بَيْتًا، عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بَابٌ مِنَ الْحَدِيدِ، لَأَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ، حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهَا النَّاسُ وَيَزِيدُونَ"، قَالُوا: وَكَيْفَ يَزِيدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " لِأَنَّ التَّقِيَّ لَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي بِرِّهِ لَزَادَ " ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " مَنِ الْكَافِرُ؟ " قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: " الَّذِي لَا يَمُوتُ حَتَّى يَمْلَأَ اللهُ مَسَامِعَهُ مِمَّا**

---

[1] الترمذي وابن خزيمة ، والبيهقي في الشعب، عن أبي سعيد، ورواه الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في حفظ اللسان رقم "2409".

[2] رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ. عن ابن عمر.

[3] صحيح البخاري، عن سهل بن سعد.

يَكْرَهُ، وَلَوْ أَنَّ فَاجِرًا فَجَرَ فِي جَوْفِ بَيْتٍ إِلَى سَبْعِينَ بَيْتًا، عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بَابٌ مِنْ حَدِيدٍ، لَأَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ حَتَّى يُحَدِّثَ بِهِ النَّاسُ وَيَزِيدُونَ" قَالُوا: كَيْفَ يَزِيدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " لِأَنَّ الْفَاجِرَ لَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِيدَ فِي فُجُورِهِ لَزَادَ". [1]

وهذه الجوارح هي التي تعترف يوم القيامة بما ارتكبت ، يستنطقها المولى تعالى وليس لها إلا البوح بما فعلت. قال المولى تعالى في ذلك: {**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** (65)} [يس]. وتتعاتب الجوارح هي وأصحابها، قال تعالى: {**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (21)} [فصلت].

أيها الأحبة جوارحنا أدواتنا في الدنيا، وشهود علينا في الآخرة، نورّطهم في سوء أعمالنا، فينقلبون علينا، ويساهمون بإدانتنا، والمحصلة قول الله تعالى: {... **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** } [الطور:21].

والمصير مشترك فمعاً إلى الجنة، أو معاً إلى النار، نسأل الله السلامة.

[1] شعب الإيمان (9/ 209)، عن أنس بن مالك.

18– أين أنا؟

كنت في فرنسا مرةً، أقود سيارتي، قاصداً مؤسسةً لم أزرها من قبل، لإجراء مقابلة مهمة، وإذا بي أرى مشهد الطريق قد تغير من حولي، فعلمت أنّي قد ضللت السبيل، أوقفت السيارة إلى جانب الطريق، وأخرجت خريطتي، وصرت أحاول أن أحدد مكاني، أين أنا؟ كم ابتعدت عن الطريق المقصود؟ وكيف ينبغي أن أصحح حتى أعود إليه من جديد؟ وبعد التدقيق اهتديت وصححت، لكني تأخرت عن الموعد وفاتتني المقابلة.

وحين عدت إلى المنزل في المساء، إستعدت المشهد آسفاً، وتساءلت متى خرجت عن الطريق الصحيح؟ وما الذي شغلني عنه؟ كم من الوقت أضعت؟ وكيف استطعت أن أصحح؟ وكم خسرت من اللقاء الذي فاتني حضوره؟

تفكرت بأن المسألة ليست دائماً سيارةً نقودها، ولا صفقةً نضيع نقودها، بل ربما حياةً نخوضها، وأن الطريق ربما يكون الصراط المستقيم، وأن مساري سيحدد مصيري.

أصابتني رِعدة حين تصورت ما كان سيحصل لي لو أنني استغرقت في شرودي، وتعرضت لعائق حال دون عودتي إلى الصواب. الشرود طبيعي لكن ماذا لو طال؟ والأنكى، ماذا لو لم أدرك أنني انحرفت عن الطريق، وأنا أظن أني أحسن صنعا؟ إلى أي مستنقع كانت ستجرّني قدماي؟

تبين لي أن العقدة والمفصل هي لحظة التوقف من وقت لآخر، والمساءلة والمصارحة مع النفس: أين أنا من الحقيقة؟ هل أعيش الواقع أم في زيفٍ مصطنع؟ بين ثوب وزينة

وسيارة وشقة وصحبة متفاخرة متنافسة على لهو ولعب وشهوة، أسنبقى نتطاحن على عرَضٍ من الدنيا قليل؟

هل يصلح كل هذا الجهد وكل هذا الإنفاق لفترة مؤقتة، يزول عزها وتنقضي شهوتها وتذبل نضارتها، بينما لم أعِدّ العدة لحياة طويلة خالدة، لم أشترِ خلالها أرضاً، ولم أغرس فيها غرساً، ولم أبنِ فيها بيتاً.

لا أدري ما سيفعل بي، هل سيعرضوا أعمالي على والداي، وعلى أولادي وزوجتي وأهلي، واخجلتاه إذا فُضِحتُ على رؤوس الخلائق، فاكتشفوا سَخفي وحماقتي، واأسفاه إذا منعت من الدخول، ورأيت سائقي وناطور بنايتي يسبقاني، وتفتح لهما الأبواب، وتنصب لهما الأقواس.

كان الأجدر بي أن أخاطب نفسي قبل فوات الأوان: قف صحح، كي لا يقال لي: قف ممنوع.

صرت أخاف أن يساء استقبالي، فيُقبض عليّ، وأساق سوق المجرمين، بدلاً من أن يحسنوا استقبالي ويكرموا وفادتي، قيل لي أن الناس هناك يُعرفون بسيماهم: {**يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ** } [الرحمن: 41]، قال الله تعالى يصف وجوه بعض الناس: {**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)**} [القيامة: 22، 23]. ومنهم من: {**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**} [المؤمنون: 104].

صرت خائفاً مما سيأتي، قلقاً على مصيري، فكيف الدواء وكيف السبيل؟

فتحت المذياع وإذا بصوت الشيخ المنشاوي، رحمه الله، يهزني ويأتيني بالجواب من سورة الكهف: {**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30)**} [الكهف].

إنه عهد من الله تعالى بالسلامة، شرط أن أحسن اختيارَ الصحبة حيث التعلم والتطبيق، كيف يمكنني الجمع بين السعيين لحياتي ولآخرتي، ومن يومها بِتُّ لا أركن ولا أطمئن إلى تقلبات الأيام، وصار عليّ من وقت لآخر أن أراجعَ نفسي **أُسائِلها: أين أنا؟**

19- وَقِفوهم إنهم مسؤولون

بعد أن قرأنا في صلاة الفجر آيات من سورة الصافات، إلتفت إليّ أحد أولادي وقال: ما المقصود من آية: {**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**}؟ [الصافات: 24]، فقلت: عبارة "وقفوهم" في هذه الآية مصدرها الوقف، وكلمة الوقف تعني الحبس. فالآية إذن تعني (احبِسوهم حتى نُساءلَهم) جاء في الحديث الشريف: " **ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولا، حتى يفكّه العدل أو يوبقه الجَوْر**"[1]. والجور هو الظلم. الأمر إذن يتعلق بالمسؤولية ولنتفكر ببعض آيات المسؤولية ولنستنتج:

- {**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**} [المؤمنون: 115].
- {**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ** } [القيامة: 3].
- { **أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**} [البلد: 5].
- {**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**} [الأنبياء: 47].

إذن لم يخلق الانسان عبثا، فهو خليفة الله في الأرض، وسيُسأل عن نفسه أولاً كما في الحديث الشريف: "**لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه**"[2]. ثم عليه أن يعي مسؤوليته كلٌ على قدر نهمته في الحياة والحديث: " **كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته: فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده**

[1] مسند أحمد، عن أبي هريرة.
[2] الترمذي عن أبي برزة الأسلمي، والبزار عن عبد الله ابن مسعود، والطبراني عن معاذ بن جبل.

وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته"[1].

يا ولدي لا أجد إلا حملا ثقيلا على أكتاف كل من له عقل وقلب، كل حر بالغ عاقل مكلَّف سيسأل عما فعل، ومع ذلك تجد نوعاً من الناس يخشى المسؤولية فيعتزل فراراً من السؤال وبالسؤال وقع، ونوعاً ثانياً لا يلقي بالاً لحجم المسؤولية وخطورتها فإذا به يخوض كيفما اتفق، فيغيّر مبادئه كما يغير ثيابه، والسلطة هي الغاية، والوصولية هي الوسيلة، وبالسؤال وقع. كما تجد نوعاً ثالثاً من الناس يحمّل نفسه فوق ما يطيق، دون أن يكلّفه أحد فيستعدي الكبار والصغار، حتى إذا يئس من تطبيق عالم المثل دخل في الشتم والسباب واللعن ولم يستثنِ أحدا، وبالسؤال وقع.

وأصعب المواقف هي التي يقع فيها من تنطح للولاية وللمسؤولية، طلبها بدلاً من أن يُطلب لها، وقد ورد: «**لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّ مَنْ سَأَلَهَا وُكِلَ إِلَيْهَا، وَمَنِ ابْتُلِيَ بِهَا وَلَمْ يَسْأَلْهَا أُعِينَ عَلَيْهَا**»[2].

يا ولدي: ما أجمل الشرع الحنيف الذي يحاكي الواقعية ولا يكلف نفساً فوق طاقتها والمرء مسؤول عما استخلِف فيه، قال تعالى: {**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** } [الحديد: 7]. فلا حاجة لأن يقاتل وهو الأعزل، ولا أن يقارع وهو لا سلطة بيده ولا موقع له . ما أجمل الشرع الذي يجعل العبد مكلفاً بما هو مسؤول عنه، ومعفياً مما لا علاقة له به. جمال الشرع من جمال الحقيقة والواقع، يأخذ العبد نصيبه من الدنيا، ويسعى ليكون في الآخرة من الفائزين، فيربح الدنيا والآخرة.

---

[1] أحمد، وأبو داود، وابن حبان، والبخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في الشعب، عن ابن عمر.

[2] البخاري 6727 ومسلم 19 - (1652) والترمذي 1529 والنسائي 5384 وأبو داود 2929 وأحمد 20637، عن عبد الرحمن بن سمرة.

يا ولدي: كيف نفهم حديث:"**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده**" أي عندما تكون له السلطة والقدرة، " **فإن لم يستطع فبلسانه**" أي عندما يتاح له المنبر دون السلطة أي يمكنه النصيحة، "**فإن لم يستطع بقلبه** "، أي عندما لا يخوّله موقعه وانعدام سلطته من تدارك الأمر. وإذا بالرحمة النبوية تواسي ذلك العاجز فلا تصفه بالنفاق ولا بالتقاعس بل تبقي عليه إيمانه وإن كان ضعيفاً. فيقول عليه الصلاة والسلام: "**وذلك أضعف الايمان**".[1]

تغيير المنكر في البيت بيد الرجل والمرأة، وبين الأهل بلسانهما وفي المجتمع بالقلب وسيجد الانسان دائماً هماً يشغله عمن سواه، قال رسول الله ﷺ:" **أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك**".[2]

يا ولدي: عش عمرك، غيّر حين يمكنك التغيير إلى الأحسن، وبلّغ حين يمكنك التبليغ، واصمد حيث ينبغي الصمود، ولا تتطرف فدينك دين الواقعية والعقلانية والوسطية والاعتدال.

وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

[1] مسلم 49 والترمذي 2172 وابن ماجه، عن أبي سعيد.
[2] الترمذي 2406 وأحمد 17488 عن عقبة بن عامر.

20- نورٌ وأيّ نور

توقف أكبر أحفادي وهو يحفظ سورة الحديد عند قول الله تعالى: {**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**} {13} قال: عفواً يا جدي، ما معنى هذا النور الذي للمؤمنين ويطالب المنافقون ببعضه؟

قلت: الحمد لله الذي أشغلك بكلامه، وجعلك شغوفاً بالسؤال عن معانيه. النور يا بني ليس نوراً واحداً، بل أنوار متعددة، فلكل عملٍ صالحٍ نور، ولكل طاعة نورها الخاص، ولا يشبه نورٌ نورا. نور الصدقة مثلاً نورٌ يدفع أنواعاً من البلايا، ونور الوضوء والغسل يرى واضحاً يوم القيامة، قيل للنبي عليه الصلاة والسلام: (**يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ مِنْ أُمَّتِكَ؟**) قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ فِي خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يُعْرَفُ خَيْلَهُ؟**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ، وَأنا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ**»[1]، أي منتظرهم هناك.

وللصلاة نورها، الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، وللذكر وللقرآن نوره يتراءى من بيت الذاكر والقاريء لأهل السماء، كما تتراءى أنوار النجوم لأهل الأرض[2]، و" **ذاكر الله في السوق له بكل شعرة نور يوم يلقى الله**"[3] ، كما جاء في الحديث الشريف.

---

[1] مسلم وابن ماجه وأحمد والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة.
[2] البيهقي في الشعب عن عائشة، وأبو نعيم في المعرفة عن سابط
[3] البيهقي في الشعب عن عبد الله ابن عمر.

ولمناسك الحج أنوارها من الطواف إلى الحلق. وفي حديث النبي ﷺ للأنصاري: "**وأما حلقك رأسك فإنه ليس من شعرك شعرة تقع في الأرض إلا كانت لك نوراً يوم القيامة**"[1]. ونور الحلق هذا، يضع حاجزاً بين معصية مضت وبين مستقبل واعد بالإيمان، تشده عزيمة تنازلت عن مظهر وعن زينة زائلين.

تعال نستعرض المزيد من هذه الأنوار، وليكن دليلنا من دعاء رسول الله ﷺ: "**اللهم اجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، وعن يميني نورا، وعن شمالي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، وفوقي نورا، وتحتي نورا، واجعل في نفسي نورا، واجعلني نورا، يا نور السموات والأرض**".[2]

فالنور الذي في القلب هو نور الحقيقة، حقيقة الوجود الإلهي، وسر خلق الله تعالى للكون، فإذا عمي القلب عن هذه الحقيقة عجزت كل أعضاء البدن عن تلمسها واكتشافها.

وأنوار السمع والبصر والشعر والجلد هي الأنوار التي تعين الجوارح على الطاعات وتردعها عن ارتكاب المعاصي والآثام. والنور الذي عن اليمين نور الهداية، والذي عن اليسار نور الوقاية، والنور الذي في المخ والعقل هو نور العلم ونور التفكر السليم. والنور الذي في اللحم هو ما ينبت من الكسب الحلال، والنور في الدم هو نور الصيام الذي يطارد وسوسة الشيطان ذاك الذي يجري مجرى الدم في العروق، والنور في العظم والعصب هو الذي يعطي القوة على قيام الليل وعلى فعل الخير، وعلى الصمود في الجهاد، والصبر في طلب لقمة العيش.

---

[1] الطبراني في الأوسط عن عبادة بن الصامت.
[2] مسلم وأحمد عن ابن عباس.

والنور من الأمام هو النور الذي ينير الصراط يوم القيامة، والذي قال الله تعالى فيه: {**نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ** ...} [التحريم: 8]. وأما النور الذي من الخلف، فهو النور الذي يقتدي به من خلفهم من ذريتهم وتلامذتهم وأحبابهم ومن اقتدى بهم. والنور الذي من فوقهم هو النور الإلهي الذي يتنزل على العبد رحمةً وكرماً، وعلماً لدنياً، ورفعةً ومهابة، وإجلالاً بين الناس، وقد ورد: "**إن لله رجالاً إذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم**"[1]. وأما النور الذي من تحتهم فهو نور العناية الربانية، الذي يحمي العبد الصالح من كل سوء يعده الماكرون والحاقدون والمخادعون للإيقاع به.

و"**اجعلني نورا**" معناها اجعلني كلّي في خدمة دينك للدلالة عليك، ولا تترك مني شيئاً فيه حظٌ لنفسي. والنور الذي في القبر هو نور الأعمال الصالحة التي تحوّل ظلمة القبر إلى نور، وكذلك أنوار الأوراد وقراءة القرآن التي تحوّل وحشة القبر إلى أنس، وعكس ذلك أن الظلم ظلمات. و"**أعظم لي نورا**"، تعني مضاعفة الأنوار الناجمة عن العمل الصالح بأضعاف الأجر والثواب. وأما "**اجعل لي نورا**" فهو الإذن الإلهي بالرضا والقبول، لقوله تعالى: {... **وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**} [النور: 40]. وأما أعطني نورا فهو الطلب من الله تعالى، أن يعطي مِن عنده ومن واسع علمه ما نحتاج إليه ولم يبلغه علمنا ولم يلهج به لساننا، فإنه يعلم ولا نعلم، ويعرف ما يصلحنا وما يضرنا.

وأما النور على نور فهو اجتماع الأنوار الصاعدة حاملةً الكلم الطيب والعمل الصالح والطاعات، مع أنوار الله الهابطة بالرضا والأجر والثواب، واقرأ إن شئت قول الله تعالى: { **يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} {8} [سورة التحريم].

---

[1] نوادر الأصول في أحاديث الرسول (2/ 41)، عن عمرو بن الجموح.

وهناك النور النبوي الذي ما بلغ قلباً إلا أحبه، ولا روحاً إلا أطربها، ولا عقلاً إلا رواه، ولا نفساً يائسة إلا سقاها وشفاها. وقد أمرنا الله تعالى أن نقصد نبيه، وأن نستغفر الله عنده، قال تعالى: {... **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** } [النساء: 64].

واعلم يا بني بأن مصدر الأنوار جميعاً واحد، إنه النور الإلهي الذي قال عنه نبينا ﷺ مخاطباً ربه سبحانه: "**أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له الظلمات وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلّ بي غضبك أو ينزل عليّ سخطك**"[1].

إنه نور الهدى الذي قال الله تعالى عنه: {**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**} [النور: 35]، ونور الرضى الإلهي الذي ذكره الحبيب المصطفى ﷺ في حق من شارك من الصحابة في غزوة بدر: "**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فإني قد غفرت لكم**"؟[2]

قال لي حفيدي، فتح الله عليك يا جدو، من أين لك هذا؟ قلت: ثبتنا الله يا بني ، جدك كان يعيش في الظلمات إلى أن التقى بالصالحين فصاحبهم، فصار يقتبس من نورهم. هل فقهت الآن معنى {**ذرونا نقتبس من نوركم**}؟ قال: نعم، الآن فهمت.

قلت: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، اللهم نوّر قلوبنا وعقولنا وجوارحنا، واهدنا للحق أنّى توجهنا، وأتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير.

---

[1] الدعاء والمعجم الكبير للطبراني ، عن عبد الله ابن جعفر.

[2] البخاري عن علي، وأبو داود 4654 , وأحمد 7927 , والترمذي 3305، عن أبي هريرة.

21-أسرار الجوع

أبواب رحمة الله تعالى لا تُقفل بوجه التائبين ولا العابدين، فلليل أسراره وللنهار أعماله، والسعيد من كانت أعماله طاعة، وأخلاقه عبادة. فهل يكون الجوع طاعةً وعبادة؟

إذا كان الهدف من الجوع مجاهدة النفس، فسيوصل إلى أكثر من طاعة وإلى أكثر من عبادة، وقد ورد أن النبي ﷺ، لما قفل عائداً من غزوة قال لأصحابه: "**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى**"[1]. وذلك لأن جهاد المعركة متقطع وأما جهاد النفس والهوى فدائم يُخشى فيه على العبد من الغفلة.

قيل في الجهاد الأكبر اختصاراً: **قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام واعتزال العوام**[2].

ويعنون بذلك الجوع والسهر والعزلة والصمت. وتختصر هذه المجاهدات بالدعاء المأثور: **اللهم أعنا على الصيام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان**. فكيف نفهم الغاية من الجوع وكيف نتمرس عليه؟

1-هل نعي خطورة الشبع وتبعاته؟

الشبع هو باب الشهوات المتتالية: فكلما نفّذ المرء رغبة أو قضى لنفسه شهوة رغبت النفس إلى شهوة أشد وأعصى، فإذا شبع من الطعام طلب الحلوى والفاكهة، ثم الشراب، ثم اشتعلت شهوته، ثم صار لا يكتفي بالحلال ثم صار لا يحفل بأية معصية يرتكب أولاً. والعلاج هو في منازعة النفس طلبها من البداية وقبل الاستفحال.

قيل في الجوع: (قاعدة الطريق للمريد ومحكمها ومجلاها هي الجوع، وذلك لأنه يغسل من الجسد مواضع إبليس...)[3].

---

[1] حديث مشهور على الألسنة، وهو من كلام: إبراهيم بن عيلة، وقال العراقى فى تحقيقه على الإحياء: رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر، ورواه الخطيب فى تاريخه عن جابر بلفظ أطول من ذلك. (إكمال المعلم بفوائد مسلم (8/ 84)).

[2] القصد هو اعتزال السوقة من الناس.

[3] الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للإمام عبد الوهاب الشعراني ج1، ص114، عن الشيخ إبراهيم الدسوقي.

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "**ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض**"[1]. وفي الحديث الشريف:"**ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه**"[2].

وقوله الشريف: " **إن أكثر الناس شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة** "[3].

2– لا يجب أن يجزع الانسان إذا ما جاع، قال الله تعالى: {**ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشِّر الصابرين**}.[سورة البقرة :155]. وهناك درجة أرقى من الصبر عند الجوع وهي إيثار غيرنا على أنفسنا فقال:{**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**}. [سورة الحشر:9]. ولا يؤثر المؤمن فقط أولاده أو أهله أو أحبابه، بل من يعرف ومن لا يعرف، قال تعالى: {**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** } [الإنسان: 8].

كما حث الإسلام على تدريب الأهل على تحمّل الجوع، قال رسول الله ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها: "**السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت**". قالت: (أصبحت والله وجعة، وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله، فقد أجهدني الجوع)، فبكى رسول الله ﷺ وقال: "**لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاثة، وأني لأكرم على الله منك ولو سألت ربي لأطعمني، ولكني آثرت الآخرة على الدنيا** "[4]..

3–أدب الجوع: من آداب الجوع صواب النية في الجوع ، أي أن يكون الجوع لله تهذيباً للنفس وتسكيناً للرغبات الطائشة، وان يكون الجوع بالله أي مستعينين به تعالى للتغلب على الجوع، قال تعالى: {**واصبر وما صبرك إلا بالله**}.

---

[1] أحمد والترمذي عن عائشة وبلفظ آخر عند البخاري ومسلم عن عائشة أيضاً.

[2] إبن ماجه 3349 , والترمذي 2380 , وأحمد 17225، وفي موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان،عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكرِب.

[3] ابن ماجه والطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي في الشعب، عن سلمان.

[4] العراقي، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (4/ 1955)، عن عمران بن حصين.

فالجوع هو دواء النفس الأمارة، وهو الذي يجعلها تستكين وتضعف، فتذعن لأمر العقل والقلب والمنطق. ومقاومة الشهوة هي فعل إرادة، ففي الحديث:" **إن من السرف أن تأكل كلما اشتهيت**"[1]. وكان الصحابة يتناصحون في ذلك: مَرَّ جَابِرٌ عَلَى عُمَرَ بِلَحْمٍ قَدِ اشْتَرَاهُ بِدِرْهَمٍ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: (**مَا هَذَا؟**) قَالَ: **اشْتَرَيْتُهُ بِدِرْهَمٍ**، قَالَ: (**كُلَّمَا اشْتَهَيْتُ شَيْئًا اشْتَرَيْتُهُ؟ لَا تَكُونُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}**). [الأحقاف: 20] [2].

ومن أدب الجوع أن ينقص المرء من حصته كل يوم لقمةً جديدة. قال سهل بن عبد الله :(**جعل الله الشبع في المعصية والجهل ، وجعل في الجوع العلم والحكمة**)، وقال: (**أكل الصدّيقين مرة في اليوم وأكل المؤمنين مرتين ومن أكل ثلاثاً قل لأهله يبنون له معلفاً**)[3]، أي صار أشبه بالدواب، ويتميز المؤمن عن الغافل بأنه إذا جاع قوي وإذا أكل ضعُف.

4-الجوع سنّة وتمرّس: قد يؤدي الشبع إلى تقوية عزم الشيطان وشهوة النفس، ويضعف عزم الانسان ومقاومته. ففي الجوع والصيام تدريب على صعوبات الحياة من فقر أو حاجة وعلى تحمل المشقات وأين الصبر إذا استسلم الجيش فور قطع الإمداد عنه؟ قال ﷺ لرجال كان يجهزهم سريّة إلى قبيلة جهينة: "**ولأبعثنّ عليكم رجلا ليس بخيركم، أصبركم على الجوع والعطش** "، فأمّر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي رضي الله عنه"[4].

كان ﷺ يشد صُلْبَه بالحجر من الغرث[5] (أي من الجوع). وعن أبي هريرة قال: (دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالسا فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالسا فما أصابك؟)،

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (10/ 213)، عَنِ الْحَسَنِ.
[2] مصنف ابن أبي شيبة (5/ 140)، عن الأعمش.
[3] الرسالة القشيرية (1/ 272).
[4] أحمد وابن أبي شيبة عن سعد بن أبي وقاص.
[5] إبن سعد عن أبي هريرة.

قال: "**الجوع يا أبا هريرة** "، فبكيت فقال: " **لا تبك فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب**"[1].

ومن نصائح العرب: (**قم عن الطعام ونفسك تشتهيه**). ومن أقوالهم المأثورة: (**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع**).

فالجوع وسيلة لإعداد الرجال وتقوية للعزيمة، يساعد على تربية المرء حتى يكون رجلاً حقيقياً، قال الإمام علي بن أبي طالب: (**لا يكون الرجل قيّم أهله حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس ولا ما سد به فورة الجوع**)[2]، أي حين يقاوم الدنيا والنفسَ معاً.

5–ثمرة الجوع في الدنيا والآخرة: جاء في الحديث الشريف:

" **أهل الجوع في الدنيا هم الذين يقبض الله أرواحهم، وهم الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أخفياء في الدنيا، معروفون في السماء، إذا رآهم الجاهل ظنّ بهم سقما، وما بهم من سقم إلا الخوف من الله تعالى، ليُظَلّون يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله**" [3].

قال تعالى: {**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**} [الحاقة: 24].

الجوع صفاء للروح وشفافية في رؤية الحقائق: قال رسول الله ﷺ: " **إذا رأيتم أهل الجوع والتفكر فاقتربوا منهم فإنه تجري الحكمة معهم**"[4]. وقال: " **لا تُكرِهوا مرضَاكُمْ على الطَّعامِ، فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالى يُطعمهُمْ ويَسقيهِمْ** "[5]. فحين يجوعون جسدياً يصبحون

---

[1] إبن النجار عن أبي هريرة.
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 306)، عن سفيان بن عيينة.
[3] الديلمي عن أبي هريرة.
[4] الحاكم في تاريخه والديلمي عن ابن عمر
[5] الترمذي 2040 وابن ماجه 3444، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ.

أقرب روحياً. وكان ﷺ يواصل في الصيام ويقول:" **إني لست كأحدكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**"[1].

ومن قوة الإرادة التمرس على مكافحة الجشع والشبع، وعلى العبد أن يذكّر نفسه عند بدء طعامه أن طعامه منّة من الله، وكذلك قدرته على الهضم، والحديث: "**من أكل طعاماً ثمَّ قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منِّي ولا قوَّةٍ، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**"[2].

6-معالجة الجوع بأنواعه:

يعالج الجوع بعدة طرق أولها اجتناب أهل الشبع والنهم والولائم، للحديث: " **أعوذ بالله من قلب لا يخشع وعلم لا ينفع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع، ومن الجوع فإنه بئس الضجيع**" [3]. أي إذا كان سبب الجوع فقراً لا قهراً لأنه يمنع النوم ويضعف القوى. ويعالج الجوع أيضاً بمخالطة من هو أجوع وأفقر، فيبحث عن الجائعين ويؤثرهم في الطعام للحديث: "**من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان**" [4].

وكذلك بالتعوّد على الجوع وأن لا يخشى الفقر، فعن علي رضي الله عنه قال:(**لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع وإن صدقتي اليوم لتبلغ أربعين ألفا**)[5]. وباعتبار الجوع حالة عابرة، فلا يشتد هلعه ولا خوفه منه، فقد ورد: " **إذا اشتد كلب الجوع فعليك برغيف وجرة من الماء القراح، وقل على الدنيا وأهلها مني الدمار**"[6]. وبالانصراف عن التفكير بالجوع والانشغال بما يهم، يقول رسول الله ﷺ:

---

[1] أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان، عن أنس. وفي الباب عَنْ عَلِيٍّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَائِشَةَ، وَابْنِ عُمَرَ، وَجَابِرٍ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَبَشِيرٍ ابْنِ الخَصَاصِيَةِ. وبرواية البخاري 1962، ومسلم 1102،وأبو داود 2360، وأحمد: «**إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى**».

[2] أبو داود 4023، والترمذي 3وابن ماجه 3285 , وأحمد والطبراني في الكبير، عن معاذ بن انس الجهني.

[3] إبن ماجه 3354 والنسائي، 5469 وأبو داود 1547 وابن حبان 1029، عن ابن مسعود.

[4] أي الشديد الجوع. البيهقي في شعب الإيمان عن جابر.

[5] رواه أحمد 1367، عن محمد بن كعب القُرَظي.

[6] البيهقي في الشعب وابن عدي في الكامل، عن أبي هريرة

" طعام المؤمنين في زمن الدجال، طعام الملائكة: التسبيح والتقديس، فمن كان منطقه يومئذ التسبيح والتقديس أذهب الله تعالى عنه الجوع."[1]

والعجب في بني آدم أننا نرى رجلاً صحيح الجسم قوي البنية يعجز عن الصيام ، يقابله فتى أو فتاة نحيلي الجسم رقيقي الحال يصومان الشهر كله، إنه فعل إرادة وإيمان واقتناع بأن الله أمر وبأنه المستعان. ومتى سيطر الانسان على نفسه بأن عرّفها معنى الجوع وفوائده الروحية، صار بإمكانه أن يطعم مايشاء من الحلال شرط أن لا يشبعها شبع التخمة.

وفي الخلاصة:

قال رسول الله ﷺ:" **يا أبا هريرة عليك بطريق قوم إذا فزع الناس لم يفزعوا، وإذا طلب الناس الأمان لم يخافوا، قوم من أمتي في آخر الزمان، يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء، إذا نظر الناس إليهم ظنوا أنهم أنبياء بما يرون من حالهم، فأعرفهم فأقول أمتي فيقول الخلائق: إنهم ليسوا بأنبياء؛ فيمرون مثل البرق والريح، تغشى من نورهم أبصار أهل الجمع، فقلت: يا رسول الله فمرني بمثل عملهم، لعلي ألحق بهم، فقال: يا أبا هريرة ركبوا طريقاً صعب المدرجة، مدرجة الأنبياء، طلبوا الجوع بعد أن أشبعهم الله تعالى، وطلبوا العري بعد أن كساهم الله تعالى، وطلبوا العطش بعد أن أرواهم الله تعالى، تركوا ذلك رجاء ما عند الله، تركوا الحلال مخافة حسابه، وصاحبوا الدنيا فلم تُشغل قلوبهم، تعجب الملائكة من طواعيتهم لربهم، طوبى لهم، ليت الله عز وجل قد جمع بيني وبينهم، ثم بكى رسول الله ﷺ شوقاً إليهم، فقال: يا أبا هريرة إذا أراد الله بأهل الأرض عذاباً فنظر إلى ما بهم من الجوع والعطش كف ذلك العذاب عنهم، فعليك يا أبا هريرة بطريقهم، من خالف طريقهم بقي في شدة الحساب.."**.[2]

وفقنا الله جميعاً لنيل بركة الصيام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان.

---

[1] رواه الحاكم، ونعيم بن حماد في الفتن، عن ابن عمر.
[2] الديلمي عن أبي هريرة.

22- جاهدها تُفلِح...

ما هي علّة الذي يعجز عن القيام لصلاة الفجر، ويتكاسل في أداء بقية صلاة يومه، ولا يصوم إلا شهر رمضان، ولا يقرأ القرآن إلا نادرا، ويشعر بقسوة في قلبه وجفاف في دمع عينه، وضيق في ذات يده؟ عافانا الله، وهل عيش النكد وقسوة القلب وضيق ذات اليد، وقلة التوفيق، وانسداد أبواب النجاح إلا بسبب الغفلة والكسل والخمول والتقاعس؟

أول المعافاة الشجاعة في مواجهة العلة، ومصارحة النفس بها والسؤال عن علاجها.

كم من إنسان واقع في هذا الحال وهو يتغاضى عما نزل به من بلاء روحي، ورضي بتقاعس الجسم وغفلة القلب وانشغال العقل. كم من شاب وشابة بلغا سن النضوج ولم ينضجا بعد. قد رضيا بالمرض ولم يواجها نفسيهما بالحقيقة، ولم يبحثا لا عن العلاج ولا عن المعالج؟

قال تعالى: {**وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ**} [النساء: 128]. أس البلوى من نفس الانسان جبلت على الشح والشهوة والكسل والخمول، تخاف من الجوع كي لا تهلك، ومن الإنفاق كي لا تفتقر، ومن الفقر كي لا تشقى، كثيرة التمني، ضعيفة الهمة، تحب ان تحمد بما لم تفعل، تنسب إلى نفسها المجد والعزة، وتحب أن تتصدر وتترأس، وأن تُمدح وتُكرم. إلى أن يصل الأمر بها إلى التنافس والحسد والبغض والبغي والطغيان، فتنتقل من آفة الخمول إلى الابتلاء بالعيوب ثم إلى اعتماد الأذى والفجور والشرور. قال تعالى: {**وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** (5)} [الفلق]. وكان عليه الصلاة والسلام يكثر في خطبه من القول: "**وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**،.."[1]. فعلّمنا أن نستعين بالله عليها، نظراً

[1] أحمد وابن ماجه وأبو داود عن عبد الله ابن مسعود.

لخطورة انحرافها ولشدة تأثيرها على مصائرنا، وكان يقول: " **اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا،...**"[1].

كما علّمنا أن النفس تشكل على صاحبها خطراً جسيماً إذا تفلتت، فينبغي كبح جماحها حتى لا ترتكب ما لا تحمد عقباه. وربما كانت القاضية على صاحبها، المهلكة له بين يدي ربه، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: "**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ**"[2].

يحق للنفس أن تخاف من الجوع لكنها إذا شبعت بطرت، وحقها أن ترتاح من تعب، لكنها إذا اخلدت إلى النوم كسلت وتقاعست، وحقها أن تنال حظها من الحياة لكنها إذا ذاقت طعم النعيم انغمست في الشهوات ونسيت ربها واليوم الآخر.

والله سبحانه ينبهنا إلى الاعتدال في كل أمر فيقول: {**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**} [الإسراء: 29]. ويشدد النبي ﷺ على أن ينال الانسان حظه من كل شيء ولكن باعتدال ودون إفراط فيقول: "**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**"[3].

ولكي نفلح في تزكية النفس لا بد من التوبة والندم على ما فات وكذلك كثرة الاستغفار، وفي ذلك دليل على صدق الطلب، إلى ان نهتدي إلى الطبيب المداوي، ولا تعدم أمة محمد ﷺ من الأطباء المرشدين المربين على الرغم من قلة عددهم. وهم الذين تربوا من قبل على

---

[1] مسلم 73 - (2722) والنسائي 5458 , والترمذي 3572 , وأحمد 19327، عن زيد بن أرقم.

[2] أبو داود 5090 , والبخاري في الأدب المفرد 701 , وأحمد 20447 , وابن حبان 970، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ.

[3] البخاري (5063)، ومسلم (1401)، وفي "مسند أحمد" (13534)، عن أنس بن مالك.

يد أسلافهم من السلف الصالح وصولاً إلى من تربى على يد النبي ﷺ. يدل الله عليهم فيقول: {**اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ**} [يس: 21]، ويدلنا على صفتهم الأولى فيقول: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**} [التوبة: 119]، ويقول الله تعالى فيهم: {**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** } [الأنعام: 90]. فالحكيم هو الذي يعلمنا كيف نكشف ألاعيب النفس وحبائل الشيطان، كي لا يلتفّا علينا ويخدعانا، ويعلّم كلاً منا كيف يواجه شهوات نفسه وكيف يقف لها بالمرصاد. يؤدبها ويعلمها أن تراقب الله في حركاتها وسكناتها، وأن ربنا واسع عليم، لا يضل ولا ينسى. وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وانه سيخرج أثقالها من مكنونات صدرها يوم القيامة، فلتستقم ولتتجنب الفضيحة.

ثم يأتي وقت الدواء، ودواء النفس يبدأ بمخالفتها بغية تهذيبها وتعليمها مهما بلغ الانسان من العمر، يقول الله تعالى: {**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)**} [النازعات]. فما من نفس شبعت إلا بطرت، وما أن بطرت حتى غفلت عن الحق، حق الناس وحق الله، وما أن غفلت حتى انغمست في تحقيق الشهوات، حتى تصل إلى مرحلة اللاعودة عن الضلال. قال تعالى: {**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**} [الأعراف: 179].

علامة الفلاح في مخالفة النفس ومجاهدتها تظهر في علو الهمة، وبذل الخدمة، وتقديم المساعدة كلما سنحت فرصة أو لاحت حادثة، والله تعالى يحثنا على ذلك فيقول: {**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ**

مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76)} [النحل].

والمربي الحكيم، يوجه الطالب بدايةً إلى مخالفته لرغبات نفسه في كل أمر، حتى في الإنفاق، فهي تحب ان تنفق على ملذاتها، وهو يوجهها لتنفق على المحتاجين من غير جاهٍ ولا رياء. فيعلمه كيف ينفق القليل القليل، يقول تعالى: **{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }** [البقرة: 219]. حتى إذا شعر بالرضى والراحة زاد في الإنفاق تباعاً. يقول الله تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** [البقرة: 261].

المجاهدة لا تتوقف ولا نهاية لها، فالنفس تصارع صاحبها عند كل وضوء وعند كل صلاة وعند كل صيام وعند كل صدقة، ومن محطات نجاح المجاهدة الرغبة بحج بيت الله الحرام وبزيارة النبي الأكرم ﷺ، حين يهون على العبد تركُ الأهل والولد والعمل والمال وقصدُ البيت الحرام حاجاً أو معتمرا، ولبس أبسط الثياب وتحمل وعثاء السفر؟

ومن أهم مجاهدات النفس إجبارها على حضور مجالس العلم وعلى صلاة الجماعة. قال تعالى: **{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)}** [الكهف]. والشرط هنا هو تغيير الصحبة السيئة والانتقال إلى صحبة صالحة تدل على الخير وتشجع عليه.

وأما من استجاب لرغبات نفسه وأحجم عن العمل وعن الطاعة فلن يضر الله شيئا وإنما صار أسير نفسه وهواه ولا يلومنّ إلا نفسه. ومن استجاب لأمر الله بأداء فرائضه بالسماحة

والرضى، فقد أفلح وسعِد في الدنيا قبل الآخرة. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : "**ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات، ويكفر به الخطايا؟ إسباغ الوضوء في المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة**"[1].

في كل طاعة يؤديها الانسان مخالفةٌ لنفسه، وتأديبٌ لها وتهذيب، وكل من لا يخالف نفسه وينساق مع شهوته يجد لذة ساعة ثم يشعر بالقسوة والشِقوة وقد لا يؤول أمره إلى خير، لقول الله تعالى: {**فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39)** } [النازعات]. ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: "**حُفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**".[2]

ولهذا ترى المؤمن والمؤمنة هادئين ساكنين راضيين مطمئنين قانعين يرجوان رحمة ربهما ويخشيان عذابه، واقفين يسألانه حسن الختام في الدنيا، والإنعام والإكرام في الآخرة. فقد زالت الحجب عن القلب وجلت لهما الحقيقة، وصارت الدنيا عندهما مطيّة لحسن ثواب الآخرة.قال تعالى: {**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**} [العنكبوت: 69]، والمحسنون هم الذين يراقبون الله تعالى عند كل عمل وعند كل طاعة وعند كل عبادة. فمن جاهد نفسه أفلح، ومن أطاعها ضاع وأضاع.

ختاماً، النجاة في ثلاثة: حبِّ الله ورسوله وكثرةِ ذكر الله ومجاهدةِ النفس، ومن جاهدها فقد أطاع الله ومن أطاع الله فقد أفلح. قال تعالى: {**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى** (14)} [الأعلى]. أما عندما تعجبك نفسك، وتلبي غرائزها، وتذعن لها، فاعلم أنك لست بخير. نسأل الله السلامة.

---

[1] مسلم 41 - (251) , والترمذي 51 , والنسائي 143 , وابن ماجه 428 , وأحمد 8008، عن أبي هريرة.
[2] متفق عليه، عن أبي هريرة وعن أنس بن مالك.

23-جمال الإيمان

مرّت بأحمد أزمة شغلت أحاسيسه وملأت عليه وقته وشغله حتى أنها كادت تطيح بعافيته؛ بحيث غلب الشرود على نظراته، والوجوم على قسمات وجهه، أزمة أذهبت بريق عينيه ونضارة وجهه.

احتار في أمره وحيّر معه أهله وذويه. فاستنجدوا بمحمد، صديقٍ له قديم كان يثق فيه ويُسِرّ إليه ويُسَرّ به؛ وما أن رأى أحمد صديقه القديم حتى جاش صدره وهطلت دمعته، فتعانق الاثنان، وانحازا إلى زاوية في البيت، وبدأ أحمد يذكر معاناته كل شاب وشابة، هموم المستقبل والحياة، والعجز عن مجابهة التحديات الكثيرة التي تطل برأسها مع كل صباح وفي كل الميادين.

أطرق محمد هنيهة، ثم قال: قم معي، قال أحمد إلى أين؟ قال: سنقوم بزيارة الحكيم، قال أحمد مستنكرًا: أي حكيم أتقصد الطبيب؟ ليس بي مرض.

رد محمد: الحكيم هذا هو معلمي الذي أطلق عقلي من عقاله، وسما بقلبي إلى أسمى سماء، وأزاح همومي عن كاهلي، وسدّد لي خطاي، عرّفني كيف ألجُم نفسي، ودلني كيف أرقب حركاتي وسكناتي، لهذا الحكيم فضلٌ عليّ وعلى كثير من الشبان، الذين آبوا بعد غياب، ووجدوا بعد فِقدان، وانتبهوا بعد غفلة، وفقِهوا بعد جهالة، واهتدوا بعد ضلالة.

لم يشعر الصديقان بطول المسافة بين البيتين، فقد استغرقا في الحديث عن الحكيم الذي تيّم قلب محمد، وعن أخلاقه ومعاملته وفضله على تلامذته ومعارفه وأهله وجيرانه.

كان أحمد المهموم مرتبكًا قلقًا من أسلوب الزيارة ومن لقاء المزور، اذ كيف سيبوح لرجل غريب عما يجيش في صدره وعن لواعج نفسه؟

واذا بالأمر غير ما توقع، فالجلسة عامة، والحضور كثيف، وما هي إلا دقائق حتى دخل الحكيم بوجهه البشوش وابتسامته المعتادة، فسلّم وحيّا ووقف له الحضور احترامًا. وتساءل

الشاب المغموم في نفسه عما عسى هذا الشيخ أن يحلّ له من أزمته، فاصطبر، وجلس مع الآخرين بعضهم يستمع، وبعضهم يصغي، وبعضهم يدوّن ما يسمع.

انطلق الحكيم مذكرًا بعناوين الجلسات السابقة، فقال: سبق لنا أن بحثنا في مسائل متعلقة بالإيمان، ومنها حلاوة الإيمان وكمال الإيمان وقمة الإيمان، وعلامات الإيمان وعنوان بحثنا اليوم: جمال الإيمان.

ما سبق ذكره كان فصولاً في الإيمان، لكن جمال الإيمان هو ثمرة ما سبق. جمال الإيمان هو ما يشعر به المؤمن بعد نضوج إيمانه. حين يقارن بين ما كان عليه من قبل، وما وصل إليه من بعد، في الدنيا وفي الدين.

جمال الإيمان حين ينظر العبد من حوله، ويرى التوفيق والرضا في المؤمن وأهله وماله وولده، بينما يرى تعاسة الآخرين وضياعهم، وتفكك أسرهم.

جمال الإيمان هو ذلك الشعور بالسرور، عندما يرى الفرج بعد كل شدة، واليسر بعد كل عسر، والراحة بعد كل عناء.

جمال الإيمان تعرفه عندما تشعر أن الله الذي تعبده يراك ويسمعك ويرقبك، وانك لا تغيب عنه لحظة حتى ولو غبت عنه، فتعرف أنك في العناية تنعم وفي الرعاية تعيش.

لا يمكن لتارك صلاة أن يصل إلى هذه الحالة، ولا لقاطع رحم ولا لعاقٍ لوالديه، ولا لشارب خمر، ولا لمدمن على مخدر، ولا للاعب قمار. ففي الحديث الشريف: "**من جعل الهموم همًا واحدًا كفاه الله كل هم، ومن تشعبت به الهموم لا يبالي الله في أي وادٍ هلك**"[1].

ثمة أمور يظن العبد أنه قادر عليها، وثمة أزمات يعجز الخلق كلهم عن معالجتها، والمؤمن الواثق من أن الله تعالى على كل شيء قدير، مؤمن أنها صعبة على الخلق، هيّنة على الله، الذي بيده ملكوت كل شيء.

يقول الشاعر: **ما بين غمضة عين وانتباهتها يغيّر الله من حال إلى حالِ.**

[1] ابن ماجه عن عبد الله ابن مسعود.

جمال الإيمان هو عندما يستوي عند الإنسان الفقر والغنى، والمدح والذم، والقبض والبسط، والحزن والسرور.

همه الوحيد أن لا تنقطع صلته بالله، وكل ما دون ذلك عارض وقابل للوصل والتعويض.

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله: "**يا رب ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك**"؟

ومن فقد الصلة بالله ضاع في غياهب الشهوات والملذات، ولم يفق منها إلا بعد فوات الأوان، يقول الله تعالى: {**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**} [الأنعام: 44].

جمال الإيمان هو في تلك الثقة المطلقة والطمأنينة الراسخة عندما يؤمن العبد ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

جمال الإيمان هو عندما يناجي العبد ربه: "**إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**"[1]. تأسيًا برسول الله ﷺ.

جمال الإيمان هو عندما يبدأ العبد بفهم حركات الخلق من حوله، بشر وحيوان وشجر وثمر، وكأن الله تعالى يحاوره ويذكره: {**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ...**} [لقمان: 11]، ويقول: {... **فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**} [الطور: 48].ويقول أيضاً: {... **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ...} [المائدة: 54]...إلى آخر الآيات.

جمال الإيمان أيها الأحبة يظهر لكم حين تتغلبون بالله على الأزمات، فلا تغلبكم نفوسكم ولا مكائد ظالميكم، فتيأسوا وتقعدوا وتحزنوا، وما كيد الظالمين إلا في تباب ولكنكم تستعجلون. لا تقلقوا كما قلق لوط عليه السلام، حين ظن أن المصيبة ستقع في الحال، فطمأنته الملائكة واستمهلته إلى الصبح قائلة: {**أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ**}؟ [هود: 81].

---

[1] الطبراني في المعجم الكبير، عن عبد الله ابن جعفر.

اليأس والقنوط دليل على البعد عن الله؛ وعدم الثقة بأنه على حلّ الأزمات قدير؛ ولئن تُرِك العبد إلى نفسه هوى وسقط ولربما مرض وانتحر.

وأما من عرف الله في الرخاء، فسيتعرف الله إليه حقًا في الشدة[1]. قال تعالى: {**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**}؟ [النمل: 62].

أيها الأحبة، احفظوا هذا الدعاء المأثور عن الحبيب المصطفى ﷺ: "**اللهم إني وجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بالنبي الذي أرسلت، وبالكتاب الذي أنزلت**"، أستغفرك وأتوب إليك[2].

جمال الإيمان هو عندما لا تسمح للهموم بأن تتكاثر عليك، فتقضي عليك، بل تحيلها إلى قاضي الحاجات جلّ وعلا، الذي يجعل بعد كل شدة فرجًا، وبعد كل عسرٍ يسرًا. قال ﷺ لابن مسعود حين رآه مهمومًا: "**لا تكثر همّك، ما يقدّر يكن، وما تُرزق يأتك**"[3].

جمال الإيمان يا أحبابي، هو الثمرة التي تدلك على صواب عملك وسعيك، وأنت في الدنيا وقبل الولوج إلى الآخرة. كن مع الله ترى الله معك.

أنهى الحكيم الجلسة وقام الشاب المهموم وكأنما نشُط من عِقال، قويًا متماسكًا متبسمًا، قفز إلى صديقه القديم مستبقًا كل حديث: جزاك الله عني خيرًا، قم بنا نأكل لقمة فلدينا أعمال كثيرة. وانقضت الأزمة.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس.

[2] متفق عليه، عن البراء بن عازب.

[3] البيهقي في الشعب عن عبد الله ابن مسعود.

24-الأخوّة في الله

اشترى أحد الأحبة بعض الحلوى وجعل يوزعها على الشباب، بانتظار موعد الجلسة مع المعلم، ولم يخل الأمر بالطبع من بعض التعليقات اللطيفة والنكات الظريفة من صاحب البادرة وعليه.

فوجئ الجميع بأن المعلّم كان ينظر إلى الجمع من الشرفة مبتسمًا مستحسنًا هذا المشهد اللطيف والوديع. ثم استوى الجمع في القاعة، وتبين أن ذلك المشهد قد أثر في المعلم، فقرر النفاذ عبره إلى لب الموضوع، قال:

ما الفرق بين الأخوة في الله وبين سائر أنواع العلاقات؟

وشرع يستمع إلى كل مجيب ليردف قائلاً: أحسنت وما أصبت. مما زاد في عطش الحضور لمعرفة الإجابة الصحيحة.

ثم قال الحكيم: الأخوّة في الله أيها الأحبّة مذكورة في الكتاب الكريم، وفي صريح الحديث الشريف وصحيحه. في سورة الكهف:{...**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**(13)}، وفي سورة الحشر:{...**يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**...(9)}، وفي سورة المائدة:{... **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**...(54)}، إلى آخر الآيات.

وفي الحديث الشريف:"... **ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه**...". [1]

الفرق أيها الأحبة أن لكل إنسان نديم وصاحب وصديق، يجمعهما هدف معين وغاية مخصوصة، بريئة كانت أم دنيئة، موهبة منسجمة أو تجارة مشتركة، وحتى هوىً في النفس واحد، وما أكثر المعاصي التي تجمع أقرانها وخلاّنها.

لكن الأخوّة في الله هي التي تجمع الإثنين والثلاثة وأكثر على غاية واحدة، وهي محبة الله ورسوله، والتعرّف على ما يهذّب النفس ويفتّح مساري العقل، ويقرّب إلى الله ورسوله.

[1] البخاري 1357 , ومسلم 1031 عن أبي هريرة.

هي اشتراك في الطاعات، والعبادات ومساهمة في الأعمال والعادات، وجهد لبلوغ أسمى الأهداف والغايات.

في الأخوة في الله لا يسأل الواحد ماذا يجني بل يسعى لأن يقدم، طالما أنه يشعر بأن خدمته للآخرين تزيده سعادةً وقربًا إلى الله.

في الأخوة في الله جهد يُبذل، ومالٌ يُنفق، ووقت يُصرف، لكن في مرضاة الله، وبما يصلِح أحوال العباد والبلاد.

في الأخوة في الله لا ينتظر العبد من أحد جزاءً ولا شكورا، بل يعمل ويكد تحت شعار{...**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ**...}(سورة الإنسان، الآية 9).

الأخوة في الله ليست تصنعًا ولا ابتذالاً، بل تصبح سجيّة ومنوالاً.

الأخوة في الله لا تتوقف ولا تنقطع ولا تنقضي، فهي تزداد مع الوقت ترابطًا واتصالاً.

الأخوة في الله خفة عن الآخرين، وتعفف عما في أيديهم، وتورع عما عندهم من أهل ومقتنيات.

ينطلق الأخ في الله من أبسط القواعد والعادات، يوقظ أخاه على صلاة الفجر، ويرافقه إلى مجلس العلم، ويذكره بالله، وينصحه إذا رأى منه ما يُنكِر. يتغاضى عن سيئاته ويشجعه على عمل الخير، لا يبخل عليه بما تناهى إليه من علم ومعرفة، يحببه إلى المعلم، ويذكره عند المعلم بخير، يقدمه أمامه، ويرفع من شأنه ويدافع عنه.

الأخ مرآة أخيه، فإذا أحسن الإعتناء به كان نسخة طيبة عنه، وكم من معلم تعلّم واكتسب خلال تعليمه لغيره. وإذا أهمله كان كالشوكة في خاصرته.

للأخوّة الحقيقية علامات، يرتاح القلبان إذا اجتمعا، ويشتد الشوق إذا افترقا، إذا غاب افتقدتَه وإذا حضر غمرتَه.

وليعلم كل منكم أنه حين يعثر على أخيه في الله وينسجم معه في مشوار العمر على طاعة الله، أن الله تعالى هو الذي جمع بينكما وألّف بين قلبيكما. قال تعالى:{... **لَوْ أَنفَقْتَ مَا**

فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ...}(سورة الأنفال، الآية 63).

قالوا في الأخوّة: **(رب أخٍ لك لم تلده أمك)**، فلربما ساد العلاقة بين أخوة النسب غيرة أو ملل. ولربما كان نسب الدم عاجزًا عن تحقيق وحدة الغايات وانسجام العقليات، وتشابه العادات.

أخوّة المصلحة تنتهي عند انتهاء المصلحة والأخوّة في الله تستمر حتى يصلا إلى:{**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى**}، (سورة النجم، الآية 42).

الأخوة في الله لا يعكرها مال ولا جاه، فكلما رأيت له ارتقاءً أيقنت أن الله قدره له وقضاه. تفرح لفرحه وتحزن لحزنه، تواسيه في مصابه وتخدمه في أفراحه.

الأخ في الله فرصة ومِنحة، تصقل عبره معارفك، وتهذب بتهذيبه نفسك. قد لا تجد من أخيك في الله مثوبة، ولكنك تجد في قلبك راحة ومن الله عناية ورفقا.

دعاء الأخ لأخيه في غيابه مستجاب، لأنه دعاء خالص لا رياء فيه، ولك مثله.

فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ، " **أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ** ".[1]

أما في الآخرة فهناك الفرحة الكبرى، يوم يفر المرء من أخيه، ابن أمه وأبيه تجد أخاك في الله تجاهك وبانتظارك، قال تعالى{...**يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ...**}، (سورة يونس، الآية45)، لا يدخل إلا معك، ويدًا بيد، يفديك بحسناته ويطلبك من الله، تجلسان على منابر من نور يغبطكما النبيون والشهداء[2].

---

[1] أخرجه مسلم والإمام أحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب، عن أبي هريرة.

[2] للحديث: **"الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ، فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ". قَالَ فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَحَدَّثْتُهُ بِحَدِيثِ مُعَاذٍ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -ﷺ- يقول عَنْ رَبِّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: "حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَحَابِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى**

أما الصداقة الزائفة القائمة على المصالح والمعاصي فقد وصفها المولى تعالى في سورة الصافات: يسأل أحد الناجين {...**إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ** (51)} ويريد أن يعرف شيئًا عن مصير هذا القرين، {**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ**(55)} فيخاطبه حامدًا ربه {...**تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ** (56)}. أي أنه لو استمر في صحبته لكان من الهالكين.

يقول تعالى: {...**فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ**}،(سورة المؤمنون، الآية 101) اذ لا نسب إلا نسب التقوى يقول الله تعالى:{ **الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**}، (سورة الزخرف، الآية 67).

وأين المتقين يومئذٍ؟ نجيب من نص القرآن الكريم: {**إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**} [الحجر: 47].

ساد القاعة صمت رقيق وغشت الأرواحَ سكينةٌ والقلوبَ طمأنينة. وإذا بصوت المؤذن يصدح بالأذان ويعيد الجمع إلى واقع الحال، فقال المعلم: اسمعوا ما قاله الرسول الأعظم ﷺ، ونفذوا قوله:"**تآخوا في الله أخوين أخوين**"[1]، وخذوا الطريقة من الإمام عليّ كرّم الله وجهه: (**أبطئ في اختيار الصديق وأبطئ في تركه**)، وقوموا إلى الصلاة يرحمني ويرحمكم الله.

الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، هُمْ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالْصِّدِّيقُونَ". اخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل.

[1] "... **تَآخَوْا أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ**... "، فتح الباري لابن حجر (7/ 271). عن محمد بن إسحق.

25- خيراً يره

الجزاء من جنس العمل

إفتتح الحكيم موعظته بالقول: يعرف أغلبنا الحكم الشرعي فيما يرتكبه الناس بحق بعضهم بعضا، بقول الله تعالى: **{أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}** [المائدة: 45].

ويكتفي بعض الناس بالاعتقاد أن ثواب الحسنة عشرُ أمثالها وجزاءَ السيئة مثلُها، وكفى، وكأن العلاقة هي فقط بين المرتكب وبين ربه، ويغيب عن بال البعض بأن على المرتكب ديناً يبقى ولا يغفره إلا المتضررون من الخلق، لأن حقوق الله مبنية على المسامحة، والله تعالى يعفو عن كثير. أما حقوق العباد فهي كالدَيْن مبنيةٌ على المشاححة. ولربما ذهبت القاعدة الإلهية أبعد من ذلك، فيأتي الثواب والعقاب من نوع العمل ذاته، يقول تعالى: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** [الشورى: 40]. وفي سورة غافر:**{ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ** {40}. وفي سورة النساء: **{مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا** {85}. ومعنى مقيتا أي يجزي بالمقدار والعيار المناسبين.

فالله تعالى عليم وحكم وحكيم، عليم بما نفعله من إحسان أو إساءة. حكم يثيب على الإحسان ويعاقب على الإساءة. وحكيم يريدنا أن نتعلم ونعتبر وأن نتقي العقاب ونتنافس في طلب الأجر والثواب. والله تعالى واسع القدرة لا يعاقب على المخالفة بأية عقوبة كيفما اتفق، ولا يثيب على الحسنة بأي ثواب كان، فهو الغني وهو المقدّر، فيعطي الثواب من جنس الإحسان، ويحدد العقاب ويقدره من جنس الإساءة المرتكبة.

لنأخذ مثلاً ثواب المحافظ على صلاته وجزاء تارك الصلاة: أقلّه أن الصلاة تزيد صلة العبد بربه وتقربه إليه تباعاً قال تعالى في سورة العلق: { **واسجد واقترب**}. وأما من غفل عن صلاته فقد ازداد من الله بعداً، وجزاؤه مزيد من الانغماس في الغفلة والشهوات والمعاصي، قال تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ...} [العنكبوت: 45]. والمعنى أن تارك الصلاة أكثر عرضة لارتكاب المعاصي، وأكثر تعرضاً لخطرها من الآخرين.

وثواب الصيام الصحة، لقوله ﷺ:"**صوموا تصحوا**"[1]، يصح الجسم وتصح الإرادة والعزيمة. والمعنى أن من لا يصوم هو ضعيف مناعة الجسم ضعيف الإرادة حتى ولو تظاهر بعكس ذلك، فإذا أهين أو استضعف كان بلا مقاومة وبلا كرامة.

وأما ثواب الزكاة والصدقات فهو خيرٌ يعمّ ويتضاعف، ومن الرزق ذاته الذي يُتصدق به، قال الله تعالى: **مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** {261} (سورة البقرة)، أما إن كان من غير نوع من الصدقة والبذل فالجزاء من النوع المبذول قال تعالى: **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** {39} (سورة سبأ). وحاشى لله أن يعرف أهل الصدقات في حياتهم فقراً أو عوَزا.

وإذا قرأت القرآن وداومت على قراءته أوجد الله تعالى في قلبك حلاوةً تشدك إليه، وفتح على قلبك معاني لم تكن لتخطر لك على بال، فتزداد بالقرآن تعلقا، وبالله تعالى حبا.

وأما ثواب { **لا إله إلا الله**}، فأقله إن رددها العبد صادقاً لائذاً بها، أنها حصنٌ وملاذٌ له في الدنيا وفي الاخرة، ففي الحديث: " **قال الله تعالى أنا الله لا إله إلا أنا، من أقر لي بالتوحيد دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي**".[2]

---

[1] أخرجه الطبراني في الأوسط (2/ 225 / 1/ 8477) , وأبو نعيم في " الطب " (ق 24/ 1 و2)، عن أبي هريرة.

[2] كنز العمال (1/ 296)، وابن عساكر، عن علي بن أبي طالب.

هذا فيما بين العبد وربه، فماذا فيما بين عباد الله؟ والحساب أدق وأشد!

فمن تتبع عورات الناس عوقب بفضح عوراته، يقول ﷺ:-ح: " **يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَتُؤْذُوا المُسْلِمينَ وَلاَ تُعَيّروهُمْ وَلاَ تَتّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنّهُ مَنْ تَتَبّعَ عَوْرَةَ أَخيهِ المُسْلِمِ تَتَبّعَ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبّعُ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ**".[1]

وفي من عيّر غيره استهزاءً وتعالياً، جوزي بالعار ذاته، جاء في الحديث الشريف: "**من عيَّرَ أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله**".[2] وجاء كذلك: "**البلاء موكل بالمنطق، فلو أن رجلا عير رجلا برضاع كلبة لرضعها**".[3] **وجاء أيضاً: "لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لأخِيكَ فَيَرْحَمُهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ**".[4]

ومن زنى تسلط عليه من يزني له بأهله!، قال ﷺ: " **عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباؤكم تبركم أبناؤكم...**".[5] وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

عفّوا تعفّ نساؤكم في المُحْرَمِ وتجنبوا ما لايليق بمسلمِ

إن الزنى دينٌ فإن أقرضته كان الوفاء بأهل بيتك فاعلمِ

ومن حلل لنفسه الحرام، فقدَ لذة الحلال مع أهله، فلا يستطيب مجالسة زوجته.

ومن مكر بالناس أتاه من يمكر به، يقول الله تعالى: {**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**} [فاطر: 43]. ومهما بلغ بالماكر مكره، فمكر الله لا يرد، قال تعالى: {**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**} [الأعراف: 99].

---

[1] الترمذي وابن حبان عن ابن عمر، والطبراني في الأوسط والكبير عن بريدة بلفظ قريب.
[2] الترمذي والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل.
[3] الخطيب في تاريخه عن ابن مسعود. كنز العمال (3/ 553).
[4] الترمذي والطبراني في الأوسط والكبير، والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع.
[5] الطبراني في الأوسط عن عائشة وعن ابن عمر.

ومن تخلى عن نصرة مسلم وهو مستطيع، لا بد أن يدفع الثمن تخلياً وخذلانا: ففي الحديث: "**ما مِن امْرىءٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِماً في مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضَهِ، إلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، ومَا مِنْ امْرِىءٍ يَنْصُرُ مُسْلِماً في مَوْضِعٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَك فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إلا نَصَرَهُ اللَّهُ في مَوْطِنٍ يُحِب نُصْرَتَهُ**".[1]

ومن أعان أعين ومن سَتَرَ سُتِر: وفي الحديث:" "**مَنْ نَفّسَ عَنْ مؤمن كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدّنْيَا، نَفّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ الله في الدّنْيَا وَالآخِرَةِ، والله في عَوْنِ الْعَبْدِ ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ.**" [2]

وأما الحسد فهو شرٌ كما ذكره الله تعالى في سورة الفلق، وهو حسرة في قلب الحاسد يصيبه قبل أن يصيب الشخص المحسود، يأكل قلبه، وهو كالجمرة يحرقه في أعماق نفسه، قال تعالى: {...**حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**...} [البقرة: 109].

ومن عادى ولياً لله عاداه الله: يقول الله تعالى في الحديث القدسي: " **من عادى لي ولياً آذنته بالحرب**...".[3] أي أعلن الله عليه الحرب.

ومن أغلق الطريق على من يدعو إلى الله، فإنما أغلق على نفسه باب الفتح وباب الرزق وباب السعادة، فصار كلامه كالحجارة أو أشد قسوة، فكأنما قطع الطريق على نفسه قبل أن يقطعها على غيره.

وما افتري على أحد ظلماً إلا نصره الله وباء المفتري بما افترى من الظلم، قال ﷺ: "**ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**".[1]

---

[1] الإمام أحمد وأبو داود، عن جَابِر بْن عَبْدِ اللهِ وَعن أَبَي طَلْحَةَ بْن سَهْلٍ الْأَنْصَارِيَّيْنِ.
[2] أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.
[3] البخاري وأبو داود وابن حبان عن أبي هريرة.

ومن صدَق وأكثر من الصدق صدّقه الناس ومن كذّب وأكثر من الكذب كذّبه الناس وسفّهوه حتى ولو حدّث بالصدق يوماً، قال رسول الله: " **إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا؛ وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا**".[2]

حتى يصل الأمر في النهاية إلى أن يوصف المرء بنوع عمله: قال تعالى: {**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا**} [الإسراء: 84].

أيها الأحبة: ليس الأمر قضية ثواب وعقاب وحسب، بل أن يرى العبد والناس جزاء ما فعل وأن يجعله الله تعالى عبرة، وهنا الدرس والمغزى. يقول تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** (8)، [الزلزلة]. فهو لن يجزى به فقط بل سيكون له منه حظ ونصيب، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. بعضه يتلقاه في الدنيا وبعضه الآخر في الآخرة، فاتقوا الله يا أولي الألباب، إنما نفعل الخير مع أنفسنا أولاً. وما نكنّ به من شر فعلينا يقع قبل أن يؤذي غيرنا.

قال الله تعالى: {**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**} [آل عمران: 30]. وانتهت جلسة الحكيم.

---

[1] أحمد والترمذي عن أبي كبشة الأنماري، وابن حبان عن أبي هريرة، والطبراني في الكبير عن ابن عباس. والطبراني في الأوسط والصغير عن أم سلمة.

[2] متفق عليه، عن عبد الله ابن مسعود.

26–الكلمة الطيبة

موضوعنا هنا هو الكلمة الطيبة، ووقعها في السماء وفي الأرض. يقول الله تعالى: {**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**} [فاطر: 10]. أي أن العمل الصالح لا يرفع إلا بعد التحقيق والتدقيق، بينما يصعد الكلم الطيب إلى السماء تلقائياً وبلا واسطة، وذلك لأن الله تعالى لا يحب من الكلم إلا الطيب، ولا يحب الجهر بالسوء من القول.

وقد جَاءَ رجلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَجُلٌ ذَرِبُ اللِّسَانِ، (أي بذيء اللسان) وَأَكْثَرُ ذَلِكَ عَلَى أَهْلِي)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ؟ إِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِائَةَ مَرَّةٍ**».[1]

ونبّهنا نبينا عليه الصلاة والسلام، فقال: "**إنَّ العبْدَ لَيَتَكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رِضْوانِ الله، لا يُلْقي لها بالاً، يرْفَعُه الله بِها دَرَجاتٍ، وإنَّ العبْدَ ليتَكلَّمُ بالكَلِمةِ مِنْ سَخَطِ الله، لا يُلْقي لَها بالاً يَهْوي بِها في جَهَنَّم**".[2]

فلينظر كل منا وليتأنّى في كلامه، فبعضه يتخطى عنان السماء لطيبه، وبعضه يهوي وقد نهوي معه.

نأتي إلى الكلم الطيّب، فنجده درجات، يفهم منه أولاً كلُّ كلمة طيبة تخرج من أفواه الناس؛ تصلح بين المتخاصمين، وتهدئ من روع المذعورين، وتواسي قلوب المحزونين. وذلك هو المناخ الذي يريده الله تعالى أن يسود بين عباده الصالحين.

والدرجة التي فوقها من الكلم الطيب، قول "**لا إله إلا الله**"، ومن ثم الدعوة إلى الله، لقوله تعالى: {**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ** } [الحج: 24].

---

[1] أبو داود وأحمد والنسائي وابن حبان والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب. عن حذيفة بن اليمان.
[2] متفق عليه، عن أبي هريرة.

والدرجة الثالثة هي كلام الله تعالى في القرآن الكريم، وكل كلامه طيب، وهو سرٌ من أسرار القرآن وإعجاز من إعجازه الدائم المستمر.

فالقرآن أيها الأحبة ليس كلامًا يقرأ ويعاد فحسب، وليس فقط آيات يستشهد بها عند الحاجة لدعم فكرة أو تأييد موقف. إنه كلام الله تعالى الذي خلق الانسان وأعطاه البيان بالقرآن. إنه صيدلية الأدوية الناجعة. من أراد أن يعرف بواطن النفس فعليه بالقرآن، وان احتاج أن يستشفي من أمراضها فعليه بتقصي الآيات. القرآن يعالج في الانسان أمراضًا كثيرة، ويحرره من عقد نفسية خطيرة، من حيث يدري أو لا يدري، وكلما عاش المرء مع القرآن، كلما تحرر من عقده المستعصية وعاداته السيئة، ومن تعهد القرآن بالقراءة والتدبر، تعهده القرآن بالطمأنينة والسكينة. قال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }** [الرعد: 28].

لكن السر الأهم في القرآن هو هذا النبع الفياض من المعاني، والمعين الذي لا ينضب من الحكم، والأزاهير التي تتفتح بلا انقطاع. وكلما بلغ المؤمن معنًى عميقًا ظن أنه وصل إلى القعر، واذ به يفاجأ بأن تحته معانٍ أعمق وأعمق، ومن تعوّد ختم القرآن وأحب القرآن وصاحبه ولازمه وجالسه، لمس هذا السرّ، وأقول لمس ولا أقول عرف فالمعرفة تحتاج إلى جهد، لا يبذله الا النخبة التي عرفت أن وراء هذا الكلم الطيب كلمة طيبة أولى وواحدة هي: **{الله}**.

يقول الله تعالى في سورة ابراهيم: **{... أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء {24} تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ {25} وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ...}**.

ومن أراد أن يفهم المقصود فليقرأ قوله تعالى في سورة النور: **{الله نور السموات والأرض}**. من زرع اسم الله في قلبه، أضاءت له معارف السماء والأرض، وأشرق قلبه بالحقيقة التي

ليس فوقها حقيقة، فلا موجود ولا معبود ولا مقصود إلا الله تعالى. وصارت الدنيا مطية الآخرة، والآخرة معبرًا لنيل القرب والرضى من الله.

وهنا نصل إلى الدرجة الأعلى من الكلم الطيب، وهي اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى واذا دعي به أجاب، يزرع في أرض القلوب، ويسقى بماء الحب، ويحرث بصحبة أهل الله، حتى إذا تمكن وتجذر، نقّى القلب والعقل والنفس والجسد مما يعكر ويشغل ويؤذي، وصار أمر المؤمن كله إلى خير، لا يقول إلا خيرًا ولا يعمل إلا صالحًا ولا يفكر الا بالصلاح والتقوى ولا يضمر للناس إلا الخير والحب.

حامل الكلمة الطيبة كلما دعوته لبّى، وكلما سألته أعطى وكلما استشرته أفاض بالحكمة والموعظة الحسنة. فصار حقًا خليفة الله في أرضه، رضي من رضي وكره من كره.

وقانا الله تعالى وإياكم من البذاء، ووفقنا لطيب الكلام ولذكر الله في السر والعلن.

27– الران والطابَع والخاتَم والقِفل

دخل الطلاب إلى المجلس، فوجدوا الحكيم قد سبقهم إليه، جالساً مطرقاً مغمضاً عينيه كأنه مستغرق في عالم آخر؛ وما أن أحس بحركتنا حتى اعتدل في مقعده، ونظر إلينا متبسماً متفحصاً متفقداً مردداً: "ثبتكم الله، ثبتكم الله..".

استفتح كالعادة بالاستعاذة والبسملة والحمد وبالتبرؤ من الحول والقوة، وبالالتجاء إلى حول الله وقوته، ثم بالسلام على الحاضرين، داعياً لهم بدوام الإيمان والعفو والعافية؛ ثم قرأ بعضاً من كلام الله تعالى من سورة الزمر، فقال: {**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** (53)}. ثم قال: لا ينبغي أن نتوقف في القراءة عند هذه الآية، بل نتابع ما بعدها كي نفهم شرط التوبة: {**وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55)**}.

ثم بدأ يعرض فكرته متسائلاً: إلى أي حد يمكن للمرء أن يتمادى بكفره أو غفلته أو ضلاله؟ وهل أوتي أحدٌ علماً يعرف من خلاله أن جراب معاصيه قد امتلأ؟ وأن صاع شرّه قد طف؟ وأن باب توبته قد أقفل أو يكاد؟ تعالوا نبحثُ في كتاب الله عزّ وجلّ، عن إجابة شافية لمن طمِع في عفو الله ورحمته، بعد غفلة ومعصية. فأي الغفلات يُغفر وأي المعاصي يُمحى؟

نعم إن الله غفور رحيم، ويقبل التوبة عن عباده، ويغفر لمن يشاء، وما منا من أحد أعطي الحق في تأخير نزول رحمته، أو منع حصول مغفرته، وهو حق خصّ المولى تعالى به نفسه دون سواه، لكنه وضع للمتمادين حدوداً وللعاصين قانونا.

فاللمم وهي المعاصي الصغيرة، تمحى بالاعتذار من الخلق وبالاستغفار من الخالق، ويلتئم جرحها بإقامة الصلاة لقوله تعالى: {**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**} [هود: 114]. ومن خاف على نفسه من تكرار المعصية، فعليه بمداومة الذكر والصلاة، والله تعالى يقول: {.. **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ...} [العنكبوت: 45].

أما أول المصائب فهو عند توالي المعاصي، وإذا بالقلب يتلوث سطحه شيئاً فشيئاً، حتى يغلّفه السواد، وفي الحديث الشريف[1]: " **إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ، سُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [المطففين: 14].

وبعض النكت السوداء قد يمحى وبعضها يبقى أثره إلى يوم القيامة، ومما يبقى اليمين الكاذبة التي تقتطع حق امريء مسلم بغير حق، ومنها أيضاً من انساق في الفتن حين تعرض ولم ينكرها. وكلما زادت الآثام زاد الران، حتى يغطي السواد القلب كله فيحجب

[1] الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة.

عن الله، ومن ذلك قوله تعالى في سياق الآية السابقة: {**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**} [المطففين: 15].

ورب إصرارٍ على هوىً استولى على القلب فأسره، فأودى بصاحبه إلى الطبع، وهو ثاني المصائب، ويطبع الله على قلب العبد إذا أصر على المعصية، أو تهاون باداء الطاعة، قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: " **مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ** "[1]، فيهمل صلاة الجمعة بعد ذلك، وينشغل عنها، فاقداً الشعور بأهميتها وفائدتها؛ والطابع أشد من الران، وفي ذلك قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل : " **اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبْعٍ**".[2]

فالطابع يطبعه الله تعالى على قلب كل متكبر جبار، وظلوم كفار، ومجتريء على حرمات الله بالمعاصي كفراً وجهارا، وإنكارا لوجود الله وإصرارا ، قال ﷺ: "**الطابع معلّق بقائمة عرش الله، فإذا انتُهِكت الحرمة اجتُرِئ على الرب ، بعث الله الطابع ، فيطبع على قلبه ، فلا يعقل بعد ذلك شيئا** "[3]. قال الله تعالى في سورة محمد: {**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** (16)}.

وإذا طُبِع على قلب العبد ضاق بالإيمان ذرعا، وود لو لم يسمع الموعظة، وفي أمثاله قال تعالى في سورة الزمر: {**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (45)}.

---

[1] الإمام أحمد والنسائي عن أبي الجعد الضمري، وكذلك أبو داود عن أبي هريرة.

[2] الإمام أحمد والبزار والطبراني عن معاذ بن جبل.

[3] البيهقي في الشعب والبزار، عن نافع عن ابن عمر.

فتراه على عكس ما تتوقع منه، يضيق بمجالسة الصالحين، ويرتاح إلى العاصين، ويتغنى بحجج الكافرين، فقد انشرح صدره للكفر، وفي مثله قال تعالى في سورة النحل: {**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108)**}.

وممن يطبع الله على قلوبهم، الذين عهد الله إليهم بأمانة الدين فضلّوا وأضلّوا، واسمعوا قوله تعالى في سورة النساء، دفاعاً عن بعض الأنبياء، وعن السيدة مريم عليهم جميعاً السلام: {**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)**}.

ويطبع الله تعالى كذلك على قلب الذي يكفر بعد الإيمان، فقد سنحت له من الدهر فرصة ثمينة فنبذها وارتد عن الغالي إلى الرخيص، قال الله تعالى عنه في سورة المنافقون: {**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** (3)}.

وإذا كان الران قابلاً للإزالة بالتوبة وباجتناب المعاصي، فإن الطابع صار أصعب زوالاً لأن صاحبه غاب عن الوعي وانساق في الضلال واستحب العمى على النور. قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (**القلب بمنزلة الكف، فإذا أذنب ينقبض، ثم يذنب فينقبض حتى**

يجتمع، فإذا اجتمع طبع عليه، فإذا سمع خيراً دخل في أذنيه حتى يأتي القلب فلا يجد منه مُدخلا).[1]

وجد الحكيم من الحاضرين اهتماماً وإصغاءً كاملين، فقرر التوسع بشرح أعمق فقال: والمعصية لا تأتي إلا بأختها أو بأكبر منها، فينجرف العبد في الموبقات ويتمادى بارتكاب المعاصي ويجتريء على الخالق القهار، لا ينافق مرة، بل مرد على النفاق واعتاد، ليبلغ المصيبة الأكبر وهي الخاتم، فيختم الله على قلبه وعلى سمعه وبصره، بحيث يؤول إلى سوء المصير، ويكتب على نفسه عذاب السعير، قال تعالى عنهم في أوائل سورة البقرة: {**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)**}.

وإذا ما ختم على قلوبهم لن يهتدوا بعد ذلك أبدا، قال عزّ وجلّ في سورة الكهف: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (57)**}.

وآخر الختم القُفل ومن معاني القفل في اللغة الإغلاق وما لا يرجى منه خير، وكأن العاصي قد كتب نهايته على نفسه بنفسه. يقول الله تعالى في سورة محمد: {**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25)**}.

---

[1] شعب الإيمان (9/ 374)، عن حذيفة. وروي كذلك عن مجاهد، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 282) عن مجاهد أيضاً.

فصار بينهم وبين الهدى عداوة ونفور، قال تعالى في سورة الإسراء: {**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** (46)}.

قال مجاهد: (**الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الأقفال ، والأقفال أشد ذلك كله**)[1]. بحيث صارت الناس أقرب إلى البهائم في طبائعها منها إلى البشر، قال الله تعالى عن أولئك في سورة الأعراف: {**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (179) }.

فتتوقف بوادر الإيمان وتنقطع آمال الهدى ولا ينفع بعد ذلك كلام ولا علم ولا عمل، ولا يتبقى للعبد إلا رحمة تنزل من الله تعالى تفضلاً ونعمةً، كما قال تعالى في سورة الجاثية: {**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** (23)}.

ثم خلص الحكيم إلى الاستنتاج، فقال: فيا إخوتي، أول الانزلاق في المعاصي والآثام ذنب ربما كان صغيرا أو اعتدنا عليه فألِفناه، فجرّنا إلى المهالك، ورسول الله ﷺ يذكّرنا بذلك ويقول:" **ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق الدنيا، إن المؤمن خلق مفتنا توابا، نسيا، إذا ذكِّر ذكَر**"[2].

---

[1] شرح السنة للبغوي (4/ 214)

[2] المعجم الكبير للطبراني (11/ 304)، وشعب الإيمان (9/ 330)، عن ابن عباس.

ولا يغترّنّ أحدنا بعبادته، بل عليه أن يرجو فضل الله ورحمته، وليبق كل منا على حذر، واسمعوا من سورة النور: {**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** (37)}.

ثم رفع الحكيم يديه مختتماً داعياً: (**اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك، ويا مصرف القلوب والأبصار صرف قلوبنا إلى محبتك وعقولنا إلى فهم آياتك وأجسادنا إلى طاعتك وطاعة رسولك**). وانتهت الجلسة.

28-الحليم حيران

ما أن جلس الحكيم وجلس طلابه إليه، حتى بادر بوجهه البشوش قائلاً: هيه، هاتوا ما عندكم. وهي عادته عندما يريد أن يخرج عن المنهاج المقرر، فاتحًا باب الاسئلة لكي يكشف الطلاب عما يجيش في نفوسهم وما يختلج في صدورهم. فيزيلوا بذلك بعض الشك والكثير من القلق. اذ الدين الحق هو الذي يستطيع أن يجد الحلول ويعالج الأزمات.

رفع أحدنا يده وقال: قرأت في حديث شريف **أن زمانًا يأتي على الناس يجعل الله فيه الحليم حيران**[1]. فما المقصود بذلك؟ وهل بلغنا هذا الزمان؟

عَلَتِ الحكيم ابتسامة رضى، تلتها قسمات جدية في وجهه، وكأن حدثًا ما قد طرأ خلال الجلسة، وقال: تعالوا ننطلق في الاجابة من الحديث الشريف نفسه، يا أبنائي اذا أدرنا ظهورنا للقوانين والأحكام التي شرعها لنا خالق الخلق ومالك الملك وهو الذي بنا أعلم وأرحم وأحكم ثم طفقنا نبحث عن حلول أخرى من تجارب أمم وأقوام وأشخاص خرجوا بنظريات عديدة يناقض بعضها بعضًا، ويسفّه بعضهم بعضًا، ثم تمر الأيام لتثبت خطأ هذا وزلل ذاك وها أنتم ترون بأم العين اتحاد دول في الشرق يتفكك، ودولة كبيرة في الغرب تمر بأزمة اقتصادية، جرّت على مواطنيها وعلى العالم خسائر وويلات وأزمات. ولئن نظرتم إلى بلادنا العربية والاسلامية لوجدتم عجزًا عن معالجة الأمور الأساسية، كالفقر والأمن والأمية وشتى ميادين التنمية على الرغم من اتساع المساحات ووفرة الثروات الطبيعية وتوفر

---

[1] حديث أبي الدرداء يرفعه، ولفظه: **"أنزل الله عز وجل في بعض كتبه، أوحى إلى بعض أنبيائه: قل للذين يتفقّهون لغير الدين، ويتعلّمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مُسُوك الكِبَاش، قلوبهم كقلوب الذئاب، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أمرّ من الصبر: إيَّايَ يخدعون، أو بي يستهزئون، فبي حَلَفْتُ: لأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحليم حيران".**

أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (2 / 162) . وابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (1 / 231 - 232) . وابن عساكر في "ذم من لا يعمل بعلمه" (ص48 - 49 رقم 9) . وابن النجار في "ذيل تاريخ بغداد" (2 / 37) .

الطاقات الفردية المتفوقة. يقول الكاتب الايرلندي الشهير جورج برنارد شو: "**لو تولّى العالم الأوروبي رجل مثل محمد لشفاه من علله كافة**"[1].

فالنمو والانماء لا يكونان الا ضمن نظام اقتصادي واجتماعي وفكري ومدني متكامل ومتكافل. ومع ذلك فأغلب أهل الحل والربط لا يرون في تطبيق أحكام الشرع حلاً لمشاكلهم وأزماتهم.

والله تعالى يقول لنا: {**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**} [المائدة: 47].

مثلنا كمثل الذي اشترى سيارة حديثة متطورة، وقرر أن يقودها على طريقته المعتادة دون أن يتقيد بتعليمات الشركة الصانعة، فاذا به بعد أن أساء استعمالها، يتهم الصانع بعدم الدراية وعدم الاتقان.

ونحن {**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**} [النمل: 88]، نريد ان ندير هذا الكون بطرقٍ معتادة وجربنا كل الطرق الا الطريقة التي نصحنا بها خالق الخلق ومالك الملك. وأسألكم: لو كان أحدكم هو المهندس الذي صمم السيارة ورأى من صاحبها تفريطًا واستهانة هل كان يقره على جهله أم يربكه وينبهه حتى يعود إلى رشده ويتقيد بتعليمات الصانع؟

فاذا اصبح الحليم حيران فلأن السبل قد سدت في وجهه وإذا كان هذا هو حال الحليم فكيف حال الذين هم من دونه؟

فرصة العودة إلى التعليمات متاحة دائمًا ونعني بها التوبة وإزالة المنكرات واتباع الصراط المستقيم وتطبيق الاحكام والمعاملات وليس فقط العبادات. لكن هل يتسع عمر الفرد الواحد لتصحيح الخلل، الحقيقة أن على جيل من الأجيال أن يبدأ بالتقويم الهادئ العاقل

[1] من كتاب "محمد عند علماء الغرب".لجورج برنارد شو (1856- 1950)، الذي رفض قبول جائزة نوبل للسلام.

وان يترك الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر، وهو ربنا سبحانه وتعالى، فهو القادر على ان يسرّع الحلول ويعجل في الانقاذ.

نظرية واحد زائد واحد صحيحة سليمة في الرياضيات إلا في المعتقد فاداء الزكاة يثبت أن أربعين ناقص واحد قد تعود على المزكي بأضعاف المبالغ التي انفقها **فما نقص مالٌ من صدقة.**[1]

وكذلك فان التقيد بما أمر به خالق الخلق ومالك الملك قد يؤدي إلى ان يقف الكون كله مع الصادقين وفي ذلك يقول الشاعر:

ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حالٍ إلى حالِ.

وختم الحكيم الجلسة قائلاً: سيبقى كل حليم حيران إلى أن يعود الناس إلى دينهم والله تعالى يقول: {**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } [الرعد: 11]، فإذا صحح المؤمنون ما في نفوسهم سيتفاجأ المشرك والمنافق والملحد لما يرونه من تداعيات سريعة فيصبحون هم الحيارى امام ما يرونه من نصر الله السريع لأهل الصدق وهو القائل: {**وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**} [الحج: 40].

[1] الطبراني في الأوسط، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا عَفَا رَجُلٌ، عَنْ مَظْلِمَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا، فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللَّهُ، وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ»**.. وفي رواية بلفظ آخر للإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف.

29- لم هذه المعاناة؟

جلس الحكيم وحيّا الحاضرين مجدداً، ثم فتح باب الأسئلة واختار الإجابة عن السؤال الأكثر إلحاحاً: ما الذي يجري عندنا وحولنا؟ ولم كل هذا العذاب وهذه المعاناة؟ ولماذا تكالبت علينا الأمم والأقوام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أوروبا إلى وسط أفريقيا، وأين غوث الله تعالى من كل هذا الظلم؟ فأجاب بهدوء:

سأجيبكم بسؤال: من أين هذه الجرأة على الله؟ عجباً لقوم يذنبون ويتباهون، ولا يأبهون ليوم تشخص فيه الأبصار، وكلما سنحت لهم الظروف بالمعصية عادوا لما نهوا عنه. فتح الله لهم باب التوبة والمغفرة، فأعرضوا حتى إذا أشرفوا على الموت استفاق بعضهم، واستمر اكثرهم في غفلته، ظاناً أنه سيخرج من أزمته سليما معافى، كما في كل مرة.

أكلت الدنيا عقولهم، وجللت الغفلة قلوبهم، وعميت عيونهم عن جلاء الحقائق، والتبصر بما هو آت، ولا مردّ له من الله.

حين سيقفون يوم العرض سيلقون باللائمة على غيرهم، كما أخبرنا ربنا تبارك وتعالى، على كبرائهم أو على آبائهم وأمهاتهم وعلى العلماء وعلى أهل الحكم وعلى رفاق السوء، وسيكون لكل شريك في المعصية حسابه، لكن ذلك لن يسقط عنهم مسؤولية عدم اهتمامهم بتثقيف انفسهم، وقلة سعيهم للتحصيل، ولسماع الموعظة وللتوبة ولتغيير السلوك.

عجباً لعبد أدار ظهره لحقيقة الآخرة، واهتم بالدنيا وظلالها وأوهامها، فإذا غنّى الناس غنّى، وإذا رقصوا رقص، وإذا طربوا طرِب، وإذا شربوا شرِب. عجبا لمن جعل أهل المجون والخلاعة قدوته، فلم يفوّت على نفسه مشهداً لهم ولا حفلا، وإذا سمع الذكر أعرض

وتولّى. قال الله تعالى في أمثاله: {**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا**...} [الأعراف: 179]، ثم وصفهم في آخر الآية بما يصدم أصحاب العقول وأصحاب الكرامة والشهامة فقال: {**أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (179)} . وصفهم بالأنعام، وهي البهائم الأليفة لأنها تنقاد بسهولة إلى الذبح، وهي تظن انها تقاد إلى المرعى. وكذلك الغافلون من غير تفكّر ولا تدبر بعاقبة الأمور وبسوء المصير.

متى نعطي بعض وقتنا لمصلحتنا العليا، وكيف نصرف وقتنا الثمين، ألا يمكننا ان نخصص بضع دقائق لأداء الصلاة، قبل أن نجلس لساعات على الشاشات. متى نعطي لأرواحنا ساعة تنشيط في الأسبوع، نستمع فيها إلى الموعظة والتذكرة، نروّح بها عن نفوسنا، ونجلوا خلالها صدورنا، ونرفع بها الغلالة عن أعيننا والغفلة عن قلوبنا. يقول الله تعالى: {**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ** } [السجدة: 18]. ويدعونا إلى المقارنة فيقول: {**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**} [الملك: 22].

ويحذرنا ربنا سبحانه ألا تفقد عقولنا قدراتها على التمييز، فيقول: {**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**...} [فاطر: 8].

قال الحكيم: إعرضوا حالكم على من تحبون من أهل التقوى وترتاحون إليه، وانظروا وتفكروا، قبل أن تقفل الأبواب وتبسط الأكفان، ويجتمع عليكم الناس لوداعكم، والله وحده يعلم إسراركم ومصيركم.

عجباً لمن يفضل أن يرسل أولاده إلى المقاهي، على أن يرسلهم إلى المسجد، وعجبا لمن لا يعرف كيف يؤدب أولاده ويوجّه زوجته، ثم يرفض أن يشجعهم ليحصّلوا بعض التوعية الصحيحة عند أهل العلم والتقوى، حتى إذا شبّ ولده غافلاً بعيدا عن العلم وأهله، سطا عليه أهل التطرف فأسمعوه كلاماً ملتهباً، وحرضوه على ما لا تحمد عقباه. ولو تحصن عند أهل العلم والتقوى، لرفض ما سيعرض عليه، ولعرف كيف يرد عليهم، ويتجنب دعواهم.

لا يسألن أحد لماذا تردى حال المسلمين فالجواب واضح من قوله تعالى: {**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**}، ومن قوله: {**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**} [الحشر: 19]. وكونوا من الذين قال فيهم: {**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)**} [البقرة].

ولا يفرحنّ أحد بأنه قام بما عليه على صعيده الشخصي، فالله تعالى يحذرنا قائلاً: {**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**} [الأنفال: 25]. فقد يعمّ العذاب ولو كان بيننا صالحون، قال نبينا عليه الصلاة والسلام: "**نعم إذا كثر الخبث**"، أي عندما تصبح الأكثرية لاهيةً عاصية.

ولا ينجز الله تعالى وعده بالنصر، حتى يؤدي العباد ما فرضه الله عليهم، قال تعالى: {**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**} [النساء: 66]. فاستقيموا تنصروا، فقد قال جلّ وعلا: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**} [محمد: 7]. فإذا استقمنا جاءنا الخير والأمن من كل صوب، واقرأوا

إن شئتم في سورة هود: {**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** (52)}.

لخّص الحكيم الجلسة بالسؤال: الم يقل ربنا لبني إسرائيل؟ {**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**(40)} [البقرة].

والآن جاء دور أمة محمد ﷺ، فهل وفينا نحن عهدنا مع الله ورسوله؟ وكلنا يعلم أن الله تعالى لا يخلف وعده ولا عهده، وهو القائل: {**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**} [التوبة: 111]. فهل فقهنا الآن سبب المعاناة؟ عسى أن نستقيم، فتستقيم لنا الأيام.

30–"هنالك"

قدّم الحكيم لجلسته فجرَ الأحد، بتلاوة آيات من سورة آل عمران. وأخذ يفسّر: يدخل زكريا النبي والرسول على مريم الفتاة الصدّيقة، عليهما السلام، في المحراب، ويستفسر منها: من أين لك بفاكهة الصيف ونحن في الشتاء؟ {**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (37) }. ما أيقظ في روعه أن هذا المكان صار مباركاً مقدساً لكثرة ما تعبدت مريم فيه، وذكرت الله عنده. وأن الدعاء عنده لا بد أن يكون مجابا. فقال تعالى: {**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ**...} [آل عمران: 38]

إستهل الحكيم بالتنبيه أن كلمة "**هنالك**" في الآية ليست زائدة، ثم تساءل : ماذا ينبغي على أحدنا أن يفعل حين يشعر بالضيق؟ أو حين تصيبه كآبة؟ أو حين يشعر بانسداد الآفاق في وجهه؟ أو حين تشتد حاجته لشيء لا يقضيه إلا الله؟ هل يخرج من بيته مغاضباً ؟ أو يذهب إلى مكان للتسلية في معصية؟ أو يهيم على وجهه بغير هدى؟ أو يغلق الباب على نفسه فتأكله الهواجس؟

"**هنالك**" أماكن مقدسة مباركة، من أتاها وابتهل فيها إلى الله قضيت حاجته، وذهب عنه ضيقه، وفرج الله عن كربته. و"**هنالك**" أماكن أخرى يعصى الله فيها، من أتاها زادت غفلته، وقويت كربته، واشتد سخط الله عليه.

"**هنالك**" عباد مباركون رضي الله عنهم، إذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم، وببركة صحبتهم بارك الله فيمن رافقهم أو زاملهم أو خدمهم، ووسع عليهم معيشتهم، ودلّهم على طريق سعادتهم. كما أن "**هنالك**" أناساً سخط الله عليهم لإقدامهم على ظلم أنفسهم وظلم غيرهم، ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي وظلموا الناس باستعبادهم واغتصاب حقوقهم. فنال من وقف إلى جانبهم قسطاً من غضب الله وسخطه.

"**هنالك**" أزمنة ومواقيت ومناسبات تباركت حين حلّت، ثم تبارك ذكرها كلما تذكرها الذاكرون، وعندها تقضى الحوائج وتنفرج الكربات. كما أن "**هنالك**" مواقيت أخرى للظلم اشتد فيه غضب الله، وكلما ذكرت تبجحاً وتفاخراً عاد الغضب وعاد السخط على من ارتكبها و حتى على من يستذكرها.

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها، ومن غاب عنها فأحبها فكأنه حضرها**".[1]

في موطأ مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال: "**عرفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة. والمزدلفة كلها موقف وارتفعوا عن بطن مُحَسّر**"[2]. سمي بذلك لأن فيل أصحاب الفيل حُسِر فيه أي أعيَا وكلّ، وكأن اللعنات لا تزال تنزل فيه من يوم أن وطئه أبرهة، الطاغية الذي أراد هدم الكعبة.

وقال ﷺ: "**تحولوا عن مكانكم الذي أصابتكم فيه الغفلة**"[3]، حين نام النبي والمسلمون عن صلاة الفجر.

كما نهى أن يحضر الناس المكان الذي تنفذ فيه أحكام الإعدام، فقال: "**إذا رأيتم الرجل يقتل صبرا؛ فلا تحضروا مكانه، فلعله يقتل ظلماً فتنزل السخطة فتصيبكم**"[4].

و"**هنالك**" مواطن يكرهها الله ورسوله ويكره مرتاديها، يقول الله تعالى في سورة النساء: **{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** (140)}.

---

[1] البيهقي في السنن الكبرى (7/ 435)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.
[2] مالك وابن ماجه واحمد عن ابن عباس.
[3] ابو داود والبيهقي عن أبي هريرة.
[4] ابن سعد في الطبقات عن خرشة بن الحارث.

وحكم بموجب هذه الآيات في مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع، قالوا: يُنهَى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا أُلحِق بهم، يعنون في الحكم. وقد حمل عمر بن عبدالعزيز الحد على مُجالس شاربي الخمر، وتلا "**إنكم إذاً مثلهم**". أي إن الرضا بالمعصية معصية؛ ولهذا يؤاخذ الله تعالى الفاعل والراضي بالمعصية بالعقوبة حتى يَهلِكوا بأجمعهم.

وفي ذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**إِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ**". مصداقاً لقول الله تعالى: {**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** } [الأنفال: 25].

من الأماكن المباركة "**هنالك**" المسجد الحرام وفي الحديث: " **إن الله تعالى يُنزِل على أهل هذا المسجد (المسجد الحرام)، في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة: ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين**".[1]

و"**هنالك**" المسجد النبوي الشريف أيضاً وفي الحديث:"**ما بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة**".[2]

"**هنالك**" مجالس مباركة، كل من حضرها بورك فيه وغُفر له، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال "**إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة. فضلا. يتبعون مجالس الذكر. فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم. وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم. حتى يملؤا ما بينهم وبين السماء الدنيا. فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء. قال فيسألهم الله عز وجل، وهو أعلم بهم: من أين جئتم؟** ... وفي آخر الحديث تقول الملائكة: **ويستغفرونك. فيقول الله تعالى: قد غفرت لهم. فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا. قال**

[1] الطبراني والحاكم في الكنى وابن عساكر عن ابن عباس.
[2] أحمد في مسنده، ط الرسالة (18/ 154)، عن سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ.

فيقولون: رب! فيهم فلان. عبد خطّاء. إنما مر فجلس معهم. قال فيقول: وله غفرت. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم".[1]

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**».[2]

"**هنالك**" مخلوقات غير البشر من حيوان وماء ونبات، بعضها مبارك وبعضها ملعون، فعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: **بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ. فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا. فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا. فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ**". وفي رواية: [فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ: "**لاَ تُصَاحِبُنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ**"].[3]

وماء زمزم ماء مباركة، وفي الحديث الشريف: " **آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم** ".[4]

و"**هنالك**" كذلك مياه حلت عليها اللعنة ولم تزل، ففي الحديث الصحيح عن ابن عمر: **أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجر أرضِ ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقَوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة** (تبركاً).[5]

---

[1] متفق عليه، عن أبي هريرة.
[2] رواه مسلم وأحمد وابن ماجه والترمذي عن أبي هريرة وبعضهم عن أبي سعيد أيضاً.
[3] مسلم واحمد والنسائي وابن حبان والطبراني في الكبير عن عمران بن حصين.
[4] ابن ماجه والبخاري في التاريخ الكبير، والبيهقي عن ابن عباس.
[5] البخاري 3199 , ومسلم 40 - 2981 , وأحمد 5984. عن ابن عمر.

"**هنالك**" مواقيت طيبة مباركة من وقف فيها بين يدي الله تائباً مخلصاً، غفر له وفي الحديث الشريف: "**هذه ليلة النصف من شعبان إن الله عز وجل يطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم**".[1] من المواقيت الطيبة الثلث الأخير من الليل، وعند انتظار الصلاة، وبين الأذان والإقامة، وعند هطول المطر، وحيث يعبد الله ، وحيث يفعل الناس الخير، وفي الحديث:" **إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها، لعله أن يصيبكم نفحة منها، فلا تشقون بعدها أبدا** ".[2]

وحين تستعاد قصص الأنبياء والصالحين تتنزل الرحمات، وتقشعر الأبدان وتدمع العيون وتترطب القلوب.

"**هنالك**" مشاهد مباركة تذكر، من سيرة النبي ﷺ مثلاً، وكأنك كنت معه، تعيش الحالة بمقدار حبك له: محمد الرضيع اليتيم، ومحمد الفتى المتفكر في الصحراء يرعى الغنم، ومحمد الشاب الصادق الأمين ، ومحمد المضطهد المطارد يناجي ربه والدماء تسيل من قدميه: "**اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس**.."، ومحمد المهاجر في الصحاري إلى المدينة عطِشاً جائعاً تعباً، والله تعالى يعزّيه فيقول له: {**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ...**} [القصص: 85]، ومحمد الذي تستقبله الزغاريد عندما وصل إلى المدينة، ومحمد الذي يقضي ليلة غزوة بدر ساجداً مبتهلاً وأبو بكر يخفف عنه ويمنّيه بالنصر من ربه، ومحمد الذي يبكي أصحابه شهداءَ أحد، ومحمد على رأس الكتيبة الخضراء المدججة بالحديد يدخل مكة فاتحاً، ومحمد الذي يعالج سكرات الموت ويلح ويوصي بالصلاة، ﷺ.

---

[1] الطبراني في الكبير والبيهقي في فضائل الأوقات عن عائشة. وكذلك الطبراني وابن حبان والترمذي وابن ماجه برواية.(فَيَغْفِرُ فِيهَا مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِ شَعْرِ مَعْزِ كَلْبٍ) أو برواية ثالثة: (فَيَغْفِرُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا رَجُلًا مُشْرِكًا أَوْ مُشَاحِنًا)، إبن زنجويه عن أبي موسى.

[2] المعجم الكبير للطبراني عن محمد بن مسلمة.

فمن قرأ واستحضر مشهداً من التاريخ المجيد، وشعر كأنه دخل فيه، كان كأنه واحد من أهله. إن خيراً فخير، وإن سوءاً فسوء. فمن أحب قوماً حشر معهم، صالحين كانوا أو عاصين.

قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**} [التوبة: 119]. كونوا جسداً بالصحبة وروحاً بالحب والإيمان، كونوا تذكراً إذا غابوا، وحافظوا على ما عاهدتم عليه، و"**المرء مع من أحب**".[1]

"**هنالك**"، بركات من آثارٍ شريفة، بها يتبرّك الصالحون ويتفاءلون ، ولنتذكر قصة القلق الذي ساور سيدنا خالد بن الوليد قبيل المعركة **لأنه فقد عِمّة له، قد خاط فيها شعيرات من أثر الرسول** ﷺ.[2]

و"**هنالك**"، كان أبو أيوب الأنصاري وزوجته إذا أنتهى النبي من طعامه يتيممان موضع أصابعه من الطعام في القصعة يريدون البركة.

وقبض السامري المنافق قبضة من التراب المبارك الذي خطا عليه الملك جبريل، وبه استعان ليفتن بعض قوم موسى من بني إسرائيل، واقرأوا قوله تعالى في سورة طه: {**قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)**}.

ختم الحكيم جلسته قائلاً: فانتبهوا واحذروا يا أخوتي مِن "**هنالك**" ، فشتان بين "**هنالك**" و"**هنالك**". "**هنالك**" قد تعني المكان، و"**هنالك**" قد تعني الزمان، و"**هنالك**" قد تعني الإنسان . "**هنالك**" توصل إلى الرحمن، و"**هنالك**" قد تؤدي إلى المهالك. فأي "**هنالك**" يخطر ببالك؟

---

[1] اسناده صحيح على شرط الشيخين، عن عبد الله وعن أنس.

[2] تاريخ دمشق لابن عساكر (16/ 246). وكنز العمال حديث رقم 37025، (13/ 374). عن عبد الحميد بن جعفر الأنصاري، عن أبيه.

ثم دعا وأمّن الحاضرون: اللهم يا مالك الملوك والممالك، ويا من كلُّ شيء إلا وجهَك هالك، لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ. وصلى الله على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

الحمد لله الذي دلّ على ذاته ومراده بكلامه وبكلام نبيّه ﷺ

والحمد لله الذي قيّض للإنسانية نبياً ورسولاً صادقاً أميناً معلّماً فصيحاً ناصحاً باذلاً ومتفانياً

والحمد لله الذي أذِن لأوليائه بمتابعة رسالة نبيِّهم ﷺ ، فأيّدهم وعلّمهم وهداهم وتولّاهم

فأرشدهم ليُرشدوا، وزكّاهم ليزكّوا

والحمد لله الذي كشف عن قلوب عبادٍ له، فاجتباهم وشرّفهم بخدمة دينه وبالدعوة إليه

والحمد لله الغفار التواب العفو الودود الذي يقبل التوبة ويمحو الزلّة ويزيد في الدرجة

ويرزق ويشفي ويعافي ويسعد في الدنيا كما في الآخرة

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا، فأنزِلَنْ سكينةً علينا، وثبّت الأقدام إن لاقينا"

اللهم منك وبك وإليك، فلك الحمد والفضل والمنّة

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله رب العالمين.

"من تزكّى"

فهرس الكتاب

متسلسل	العنوان	صفحة	متسلسل	العنوان	صفحة
-	مقدمة	3	17	الجوارح	62
1	تذكرة سفر إياباً	5	18	أين أنا	65
2	إرحم نفسك	9	19	وقفوهم	68
3	الفوز العظيم	13	20	نور وأيّ نور	71
4	إقرأ من المهد إلى اللحد	16	21	أسرار الجوع	75
5	الشيخ المربي والشاب	19	22	جاهدها تفلح	81
6	القرآن في رمضان	22	23	جمال الإيمان	86
7	تدبر القرآن	25	24	الأخوّة في الله	90
8	ويتفكرون...	29	25	خيراً يره	94
9	لغة السر	32	26	الكلمة الطيبة	99
10	الأعضاء الباطنة	35	27	الران والطابع والقفل	102
11	القلب	38	28	الحليم حيران	109
12	العقل	43	29	لم هذه المعاناة	112
13	العقل بين الرقي والانحطاط	47	30	هنالك	116
14	النفس	51	-	خاتمة	123
15	أمراض النفس	54	-	فهرس	124
16	تمييز الخواطر	57	-	المراجع	125

لائحة المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.

– متون الحديث الشريف.

– تفاسير القرآن الكريم.

–شروح الحديث الشريف.

– الزهد والرقائق لابن المبارك: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المْروزي (ت 181هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت.

– الفتن لنعيم بن حماد : أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (ت 228هـ)، تحقيق سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد – القاهرة، الطبعة الأولى، 1412.

– الطبقات الكبرى لابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت 230هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1990 م

– مصنف ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت 235هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة الأولى، 1409.

– البخاري في الأدب: الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت 256هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الثالثة، 1409 – 1989.

– الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت 281هـ)، تحقيق د نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد - الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، 1411هـ 1990م

– نوادر الأصول في أحاديث الرسول: نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي (ت نحو 320هـ)، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل – بيروت.

– مسند الشاميين للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت 360هـ)، تحقيق حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1405 – 1984.

–الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت 365هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود–علي محمد معوض، وعبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية - بيروت–لبنان، الطبعة: الأولى، 1418هـ1997م.

– **العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني**: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (ت 369هـ)، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة – الرياض، الطبعة: الأولى، 1408.

– **التعرف لمذهب أهل التصوف الشيخ أبو بكر الكلاباذي**: التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت 380هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.

– **الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين**: الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي المعروف بـ ابن شاهين (ت 385هـ)، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2004 م.

–**الإبانة الكبرى لابن بطة**: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: 387هـ)، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

– **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت 430هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت.

– **الطب لأبي نعيم**: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت 430هـ)، تحقيق مصطفى خضر دونمز التركي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 2006 م.

– **أدب الدنيا والدين للماوردي**: أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت 450هـ)، دار مكتبة الحياة، 1986م.

– **البيهقي في الآداب**: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت 458هـ)، اعتنى به وعلق عليه أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

– **الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي**: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي – السعودية،الطبعة الثانية، 1421هـ.

– **تاريخ بغداد**: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت 463هـ)، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت. 2001م.

– **جامع بيان العلم لابن عبد البر**: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت 463هـ)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1414 هـ - 1994 م.

– **الرسالة القشيرية**: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ). تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة.

– **كيمياء السعادة**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، تحقيق أبو سهل نجاح عوض صيام، دار المقطم، مصر، 2010م.

– **الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي**: شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسرو، أبو شجاع الديلميّ الهمذاني (ت 509هـ)، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986م.

– **شرح السنة للبغوي**: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت 516هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ - 1983م.

– **ذم من لا يعمل بعلمه لابن عساكر**: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت 571هـ)، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر - دمشق [طبع مع: ذم قرناء السوء]، الطبعة الأولى 1399 هـ - 1979 م.

– **تاريخ دمشق لابن عساكر**: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت 571هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415 هـ - 1995م.

– **البرهان المؤيد**: الشيخ أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي(ت 578هـ)، دار الأنصاري، حلب، 1414هـ.

– **جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي**: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، تأليف زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت 795هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، 1422هـ - 2001م.

– **بحر الدموع لابن الجوزي**: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج (ت 597هـ).دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر 1992م.

– **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين للعراقي**: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، العِراقي (ت 806 هـ)، ابن السبكى (727 - 771 هـ)، الزبيدي (1145 - 1205 هـ)، استِخرَاج أبي عبد اللَّه مَحمُود بِن مُحَمّد الحَدّاد (1374 هـ)، دار العاصمة للنشر – الرياض، الطبعة الأولى، 1408 هـ - 1987 م.

– **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت 807هـ)، تحقيق محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية.

– **فتح الباري لابن حجر**: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت 852)، دار المعرفة – بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب.

– **ذيل تاريخ بغداد**: محمد بن أحمد بن داود، أبُو عبد الله شمس الدين ابن النجار (ت 871هـ)،تحقيق، د بشار عواد، وزارة الإعلام، بغداد ، 1974م.

– **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**: الإمام عبد الوهاب الشعراني، (ت 973 هـ)، مكتبة المعارف–بيروت 1993.

– **الكشكول**: محمد بن حسين الهمذاني ، بهاء الدين (ت 1031هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992.

– **المكتوبات الربانية**: الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي، (ت1034هـ)، جمعها يار محمد الجديد البشي الطالقاني، علّق عليها ووضع حواشيها مصطفى حسنين عبد الهادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

– **حياة الصحابة للكاندهلوي**: محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (ت 1384هـ)، حققه، وضبط نصه، وعلق عليه: الدكتور بشار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 1999 م.

– **موسوعة الكسنزان**: فيما اصطلح عليه اهل التصوف والعرفان، السيّد الشيخ محمد بن الشيخ عبد الكريم الكسنزان الحسيني، (ت 1426هـ)، دار آية ، بيروت.

– **مواعظ الصحابة لعمر المقبل**: عمر بن عبد الله بن محمد المقبل، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1435 هـ.

هذا الكتاب

فيه أمثلة وأدلة على وقع التزكية في النفوس
وعلى أثرها في الأفكار والأقوال والأعمال
جمع من بستان التزكية أزهارا، ومن تجربة العمر أخبارا
يُقرأ من أوّله ومن أوسطه ومن أواخره
يذكّر من سبقت له بالتزكية معرفة
ويقدّم لمن يحب أن يصغي لنداء العقل أو القلب أو الروح
يقول ربنا سبحانه وتعالى
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى
السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [سورة ق: ٣٧]
صدق الله العظيم